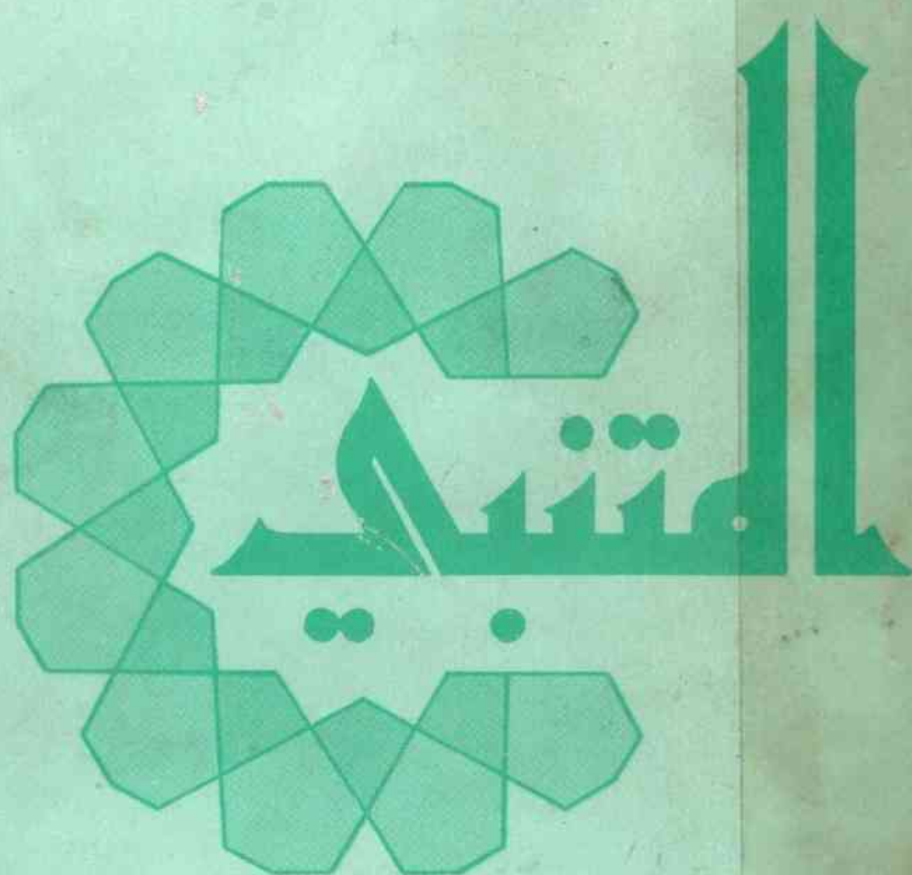
الجمهورية العراقية ـ وزارة الاعلام

المثال والتحول

آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته



د . جلال الخياط

منشورات وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية

صدر بمناسبة مهرجان المتنبي
بغـداد ـ تشرين الاول ١٩٧٧

المثال والتحول

آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته

د. جلال الخياط

مقدمة

ليتم التواصل الزمني والفكري بين الاجيال المتعاقبة ، تتمثل خلاصة جيدة لاعمال الماضين وما أضفوا على التجربة البشرية من اسهام وانجاز وتطوير ، وندرس ونبحث ونلح في التأمل ، ونعرف ونهتدي ونسير • وأظن ان أشعار المتنبي وأحداث زمانه مازالت مادة لموضوعات كثيرة لم تستوعبها الدراسات التقليدية بعد ، وان أكد كتاب على قضايا معينة معروفة ، افتقرت احيانا الى التعليل والاحاطة بالاسباب والبواعث ، وادراك مادفع الشاعر الى اتخاذ هذا الموقف او ذاك •

والمتنبي ظاهرة متكاملة في عالم الشعر العربي ، لها ابعاد واطر خاصة ومدى يتطلع الى اضاءة وتوضيح ، يزخر بفيض لاينتهي من قضايا أدبية ، تبدو جديدة ، رغم ماألف وكتب عن الشاعر ، ونعجب أنها لم تحظ ، من قبل، بانتباه وعناية • وظل شعراء كبار عبر العصور ، بمواهبهم العالية وابداعهم المتجدد مع الزمن ، رجالا نظموا الشعر ! ولكن المتنبي ، كظاهرة ، لا يماثله أحد بتفرده وتميزه ، يتحد شعره وتاريخ حياته ، بشكل غريب ، يصعب ان نرى قرينا له ، ينضح أصالة فيما ينظم ويصدر من أفعال ، وتصح لديه الحقيقة النقدية بضرورة دراسة الشعر من خلال حياة الشاعر وموقفه من عصره •

وتحدد التكاملية أشعاره وحياته بفصول أربعة ، الاول :نشأته وصباه والغموض الذي يحيط به ورحلته الى البادية ، واتصاله بالاعراب ، وسجنه وعلاقته ببعض الممدوحين • والثاني : لقاؤه بسيف الدولة ، واشتراكه في الحروب والغزوات ، وظهور طبقة من الحساد والمناوئين ، وتحديه ، فيما بعد ، للامير ومجلسه ، وخروجه من حلب • والثالث : ذهابه الى مصر بحثا وراء سلطة وولاية ، وخيبته هناك ، وهروبه بشكل يزري بقصص المغامرات• والرابع : يبدأ بنجاته من جند كافور وعودته الى بغداد ، وما جرى له من أحداث مع الشعراء المناوئين ورجال العصر الذين رفض ان يمدحهم ، وجولته

في فارس ،ثم عودته ، ومقتله في طريقه الى الكوفة •أحداث تتماسك باجزائها الصغيرة والكبيرة ، وتهيء مادة مسرحية جيدة لحياة ووقائع عصر مثير •

وتتميز موضوعات يكتبها الباحثون عن المتنبي وأشعاره بقدرتها الهائلة على التبويب والتحديد والانفصال الشكلي عن الاطار العام ، رغم العلاقة القائمة • ولكنها تصعب في الاهتداء اليها كمؤشر لفهم الشاعر وعصره ، ولذا يبقى المتنبي ، برأيي ، مع البحوث الكثيرة التي كتبت عنه ، مجهولا في بعض قضاياه ، ومصدرا ثرا يمد الدارسين بموضوعات لا تنضب : مطالع قصائده ، حبه للمجد ، نسبه ،كبرياؤه وطموحه ، آراؤه الدينية والسياسية ، مديحه ، رثاؤه ، هجاؤه ، مزجه بين القديم والحديث في شعره ، موقفه من الحياة والمرأة والفكر والانسان ، مفهومه للزمن ، حساده ، ماأغفله الشراح من قصائده ، اسلوبه ، شاعريته الخ •••

ويحاول هذا الكتاب ان يلم بجوانب من المتنبي ــ الظاهرة ، فقضية حساده لها أهمية كبرى تفوق ما يتخيل الدارسون ، وأي باحث يعرف ان حسادا للمتنبي كثيرين رافقوه في كل مكان ، ولكن ان يقرر اولئك الحساد مسار شاعريته ويسدون عليه سبل طموحه ومواهبه وحركاته ،ويكون تأثيرهم عليه شاملا تاما ، ويمتزجون بأحداث حياته اليومية وينتهبون أحلامه وكوابيسه ، ويشوهون عواطفه واحاسيسه ،ويلاحقونه حتى مقتله ، وما بعد مقتله ! فمسألة تستحق وقفة وبحثا ، واذا بها تتكامل بشكل درامي مكثف، وكأنها من فعل خيال مؤلف مسرحي معين ، وليست واقع شاعر ومأساته •

وقضية الحكمة عنده وما شاع عنه بأنه شاعر حكم تتطلب درسا واناة ، لان المتنبي ابتدع شكلا من الرمز في الحكمة للتعبير عن معان لا يستطيع ان يؤديها بصورة مباشرة ، فهو ليس بشاعر حكم مجردة ولكنه صاحب اسلوب خاص في الحكمة ، وان أردنا وأصررنا ان يكون شاعرا حكيما ففي موقفه من الزمن ورثائه للانسان وصراعه مع الدهر •

وشغف المتنبي بالمعارك والغزوات والامجاد والبطولة ، واتصافه بنزعة حربية تسيطر على ما ينظم من اشعار ، تستدعي بحثا عن اقتران الشعر والفروسية عنده ، وكيف يصبح شاعر كبير داعية حرب •

وتقوم قضية اخرى غريبة تتمثل في العلاقة بينه وبين كافور ، وتوظيف الشعر وسيلة للوصول الى الحكم ، ومشاركة الممدوح السلطة ، وتأثير الشعر على التاريخ حين يسدل ستارا كثيفا على حقبة تحول فيها عبدمملوك الى حاكم مطلق •

ولابد ان نعرف شيئا عن موقف المتنبي من المرأة ودورها في حياته ، وهل يصح ماتناوله الباحثون بأنه بعيد عنها ، زاهد فيها ، تعشق المجد وأحب القتال ؟

وانفراد الشاعر ، في شخصيته وآماله ومواهبه وردود أفعاله ، أورثه الاغتراب والتوحد ، وتفصح أشعاره عن الانفصال الذي تم بينه وبين مجتمعه وممدوحيه وأحداث زمانه ، وهو يضع لنفسه دوما مثالا ، يتحول عنه اواليه، ففي مطلع شبابه يريد ان يحقق مجدا ورفعة عن طريق اشاعة اهداف معينة ويلتف حوله الاعراب ، ويسجن ، فيترك ذلك • ويتخذ من سيف الدولة مثالا للرجولة والفروسية والمروءة ،فيحوله حساده عنه ، ويدرج في أشعاره خلاصة تجاربه فيحيل الشراح عالمه الفكري الخاص المتكامل أبياتا مفردة او انصاف أبيات ، يسمونها حكما ، ويؤمل من كافور سلطة ويفشل ، ويصبح السيف رمزا للقوة والبأس ، ولكن لايستطيع به وحده ان يغزو العالم ، ويعيش الشاعر محنته •

أي جانب من جوانب ابي الطيب يمكن ان ينتهي بانه ذاتي وغريب وخاص بصاحبه • واعترضتني في هذا الكتاب مشكلة النص الشعري ، وبالرغم من مصادر ومراجع اشرت اليها ، تبقى الاشعار في الطليعة ، ولذا كثر الاستشهاد وبدأ يطغى على الكتاب ، فأضطررت اناقلل منه ، مع اهميته ، ليتم الانسجام بين النص والبحث ، ووددت لو لم أفعل ، وان تأخذ الاشعار الكثيرة مكانها •

كلية الاداب ـ بغداد   جلال الخياط

المتنبي وحاسدوه

لم يثر شاعر حسادا ومناوئين ونقادا ومعجبين ، في عصره وما بعد عصره ، كما فعل ابو الطيب المتنبي ، ماليء الدنيا وشاغل الناس ، فخلف ثروة أدبية تزداد مع الايام ، وتضاربا في الآراء وتناقضا في الاحكام ،لم يشهد الادب العربي مثيلا لهما في أطواره المختلفة ، ، ولعل الخصومة التي قامت حول المتنبي ، والحسد احد اسبابها ، من أكبر قضايا الشعر في العصر العباسي • ولاتنتهي مهمة الشاعر بالنظم ، ولكن بدفع الاخرين الى تأطير اتجاه بالنقد ، لحيويته وابداعه ، فيسهم في تطوير الاداء الشعري والنقدي •وكان المتنبي في هذا وذاك ظاهرة ودليلا وشاهد عصر • ووراء عالم المتنبي الادبي بواعث كثيرة ، في طليعتها اصالته وموهبته ، ومزجه بين القديم والحديث، وتميزه من اقرانه الشعراء ، باسلوب ومعان واتجاه ونوازع ، فأخمل ذكرهم وأوقع فيهم الحسد والغيرة والمرارة واللوعة •

وللمتنبي قدرة على الاثارة نادرة فيما ينظم من شعر وما يفصح من آراء وما يصدر من مواقف ، وفي حياته المليئة بالحركة والعنفوان والتنقل والترحال وفي افكاره ذات التوقيت الحاسم السريع ، وفي طموحه وآماله الكبيرة ، وشغفه العجيب بمجد لم تدركه طقوس ملوك العصر • ولو جاز لنا ان نقرنه بالمعري كامتداد مكمل ومتمم نهض بالقرن الرابع الهجري الى المكانة الادبية التي يتبوأها بين العصور ، لعرفنا أية موهبة تمتع بها شاعرنا ، يصعب تعيين أبعادها ، ويسهل الايماء الى قضايا كثيرة حدت من آفاقها ، وضاءلت من قدراتها ، وشلت من انجازاتها ، كالمدائح وما شغلت من حياة الشاعر ووجدانه وهدرت من طاقاته ، وما تضمنته من صفات ثابتة للممدوحين مهما اجاد الشاعر في سردها ، تظل ذات قوالب محدودة، تفتقر الى التشابك والصراع والعمق والصيرورة والتطور[١] ، والحساد الذين كان لهم تأثير عظيم في حياته وفي شعره وعلاقاته مع الممدوحين • فهل نستطيع

ان نبرر اهتمام شاعر كالمتنبي باولئك الحساد ؟ وان نحيط بمدى تأثيرهم فيه وقدرتهم على توجيه موهبته وردود افعاله وهسومه وتطلعاته ؟

رافق الحساد المتنبي منذ صباه ومطالع حياته الشعرية الاولى[٢] ، يصاحبونه في كل مكان ولايفارقونه اينما حل ،وشكلوا عصبة قوية متماسكة في حلب ايام سيف الدولة ، الرجل المرموق بين حكام عصره :«وكان ــ رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مأواه ــ غرة الزمان ، وعماد الاسلام ، ومن به سداد الثغور ، وسداد الامور» [٣] ، فخليفة بغداد انحسرت عنه ابهة أسلافه ، وانتهب الدولة العباسية حكام وملوك ، عرب وعجم ، شغلتهم خصومات وغزوات ومطامع وصبوات ، وحملات الروم تترى على الحدود ، فيتصدى لها سيف الدولة بشجاعة وقدرة حربية عالية[٤] .

ولم تعد للشعر تلك السطوة العباسية المعروفة ، ولكن اللقاء بين الشاعر والامير ارجع له الاشراقة السابقة ومثل علامة مضيئة في القرن الرابع الهجري ، بحدود تقاليده الشعرية المعهودة ، نست وتطورت ثم انتهت ، أضرّ بها الحساد ، وكان لها ان تستمر فتقدم نماذج شعرية أكثر مما صنع المتنبي في مدائحه وسيفياته ووصفه للمعارك والغزوات ، ولو لم يكن المتنبي شاعرا أصيلا مبدعا متميزا ، ولو لم يكن سيف الدولة :«...مقصد الوفود ،ومطلع الجود ، وقبلة الامال ، ومحط الرجال ، وموسم الادباء ، وحلبة الشعراء ... »[٥] ، لما نشأت لديه طبقة من حساد الشاعر واعدائه انهت ذلك اللقاء بفراق اتخذ طابعا مأساويا ، وبدد قدرات المتنبي عند كافور وغيره ، وبالرغم من ان سيف الدولة : « كان اديبا شاعرا محبا لجيد الشعر ، شديد الاهتزاز لما يمدح به ... »[٦] ، وخلف ذلك الفراق حسرة دائمة ولوعة متقدة ، واوقع بالشاعر وفت في عضده ، واضناه واتعبه ، وعمل على تلاؤم الظروف التي ادت الى مقتله ، وهو يدرج في مطالع العقد السادس من عمره . وكانت فاجعة كبيرة مني بها الشعر واصحابه .

حظي ابو الطيب عند سيف الدولة بمكانة سامقة لم يبلغها شاعر عند ممدوح من قبل «ولم يجتمع قط بباب احد الملوك ــ بعد الخلفاء ــ ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر» [٧] ولكن المتنبي اشترط على ممدوحه الاينشده واقفا والا يقبل الارض بين يديه[٨]، لاعتزازه بنفسه

ومعرفته بقدراته ، وتعاليه وكبريائه ، فرضي سيف الدولة ولم يهتم بتقاليد المديح السائدة وأورث الحساد غما فاتهموا المتنبي بالجنون[٩] ،وكان ابو محمد يحصل على ثلاثة الاف دينار سنويا ، وعلى اعطيات وجوائز في مناسبات خاصة : «وأخبرني بعض المولدين ببغداد ، وخاله ابو الفتح يتوزر لسيف الدولة : ان سيف الدولة رسم له التوقيع الى ديوان البر بأخراج المال فيما وصل بهالمتنبي،فخرجت بخمسة وثلاثينألفدينارفي مدةأربعسنوات»[١٠] فليس عجيبا أن يقتل الحسد الشعراء ، وأن يقفوا في طليعة مناوئيه ومبغضيه لانه استلب منهم الشهرة والمجدوالعطاء « فخافوه على ارزاقهم»[١١]، وكان الى هذا وذاك رفيقا ومصاحبا لسيف الدولة في حله وترحاله ، وحروبه وغزواته ، يخاطبه خطاب الصديق والحبيب ، وهم ينتظرون على الابواب حتى يؤذن لهم بالدخول وتقبيل الارض والانشاد ، وقد يمنعون ويحجبون ، فكثر حاسدوه وتألبوا عليه واجتمعوا على الانتقاص منه : « ولم يستطيعوا أن ينظروا في غير حقد الى ما كان يتمتع به المتنبي من حظوة عند سيف الدولة ومن اعتزاز عند المعجبين به ، وكان في أخلاق ابي الطيب ، بنوع خاص ، ما لم يستطيعوا قبوله • وقد زاده كبرا ما لاقى من نجاح • ومنذ وصوله عند سيف الدولة ، وحتى قبل أن يكون اتباعه حلقة أدبية ، اجتمع خصومه في عصبة تكونت ممن كانت تصرفات الشاعر تثيرهم وممن كانوا يخشونه على ما لهم من امتيازات »[١٢] ، « وقيل : ان الخالديين ، ابا بكر وأخاه عثمان ، قالا لسيف الدولة : انك لتغالي في شعر المتنبي ، اقترح علينا ما شئت من قصائده حتى نعمل أجود منها ، فدافعهما زمانا ، ثم كررا عليه ، فأعطاهما القصيدة التي مطلعها :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي
وللحب مالم يبق مني وما بقي

فلما أخذاها، قال عثمان لاخيه ابي بكر : ما هذه من قصائده الطنانات، فلأي شيء اعطاناها ؟ ثم فكرا ، فقال أحدهما لصاحبه ، والله ما أراد الا هذا البيت :

اذا شاء ان يلهو بلحية أحمق
أراه غباري ثم قال له الحق

فتركا القصيدة ولم يعاوداه ولم يعملا شيئا »[١٣] ، ولم يقصد سيف الدولة ذلك البيت وحده وانما البيت الذي يليه أيضا[١٤] :

وما كمد الحساد شيئا قصدته
ولكنه من يزحم البحر يغرق

وأعرض سيف الدولة عن ابي العباس النامي : « وكان عنده تلو المتنبي في المنزلة والرتبة »[١٥] ، فعاتبه فلم يحر جوابا فألح ، فقال : انك لاتحسن ان تأتي بمثل قوله :

يعود من كل فتح غير مفتخر
وقد أغذ اليه غير محتفل

فغضب ابو العباس النامي ولم يمدحه بعدها[١٦] ، وكتب رسالة يتعقب فيها أخطاء المتنبي ، اشار اليها ابن وكيع في «المنصف»[١٧] ،ولم يجد فيهاغير سب المتنبي من غير ايضاح العيب في قوله[١٨]، وكان النامي قد وجه خطابه الى المتنبي : «واين ذهبت وفي أي ضلالة همت ومن اي قليب جهالة اغترفت ؟ هذا النوع الذي اكثرت العجب به هو الذي اكثر التعجب منك»[١٩] ، ولكن حسد ابي العباس لم يمنعه من الاعجاب ببعض أبيات المتنبي ، قال : كنت اشتهي ان اكون سبقته الى معنيين ما سبق اليهما ، ، أما احدهما فقوله[٢٠] :

رماني الدهر بالارزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا أصابتني سهام
تكسرت النصال على النصال

والآخر :

في جحفل ستر العيون غباره
فكأنما يبصرن بالآذان

وقيل : ان السري الرفاء ، أحد شعراء سيف الدولة ، سمع بيت المتنبي:

وخصر تثبت الابصار فيه
كأن عليه من حدق نطاقا

فقال : « هذا والله معنى ما قدر عليه المتقدمون ... وحم في الحال حسدا وتحامل الى منزله ومات بعد ثلاثة ايام»[٢١] وينفي البديعي هـذه الرواية ، بعد ان اوردها ، لان السري استعمل هذا المعنى بقوله[٢٢] :

احاطت عيـون العاشـقين بخصـره

فهـن لـه دون النطـاق نطـاق

ومقتل السري ببيت شعر للمتنبي ، ان صح ولم يكن تلفيقا ، ذو دلالة كبيرة على مدى ما يدركه الكتاب من غيرة الشعراء وحسدهم لأبي الطيب الذي تحداهم وأهانهم في أول قصيدة القاها بين يدي سيف الدولة[٢٣] :

غضبت لـه لمـا رأيـت صفاتـه

بلا واصف والشعـر تهـذي طماطمـه

وكثر الحساد واحكموا الطوق حتى ان أبا فراس قال لسيف الدولة : «ان هذاالمتمشدق كثير الادلال عليك ، وانت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ، ويمكن ان تفرق مائتي دينار على عشرين شاعـرا يأتون بما هو خير من شعره ، فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمـل فيه»[٢٤] ، ولايخفى ان شاعرا كأبي فراس يدرك مدى أبعاد قدرة المتنبـي الشعرية وموهبته العالية وتميزه من أقرانه الشعراء . ولم يغتفر ابو العشائر للمتنبي عدم اهتمامه به بعد ان أسدى اليه فضلا كبيرا وأهداه الى سـيف الدولة[٢٥] ، فترفع بعد ذلك عن مدحه ، وكان قد نظم له قصائد ومدائح كثيرة[٢٦] .

ومما اقلق المتنبي واسهم في اتخاذه مواقف حاسمة ، كفراق سـيف الدولة وتوجهه الى كافور ، اقبال الامير عليه ، باديء الامر ، بقوة وشغف واعجاب ، ثم الاستماع الى الوشاة والحساد والتأثر باقوالهم ، فيما بعد ، والاعراض عن الشاعر : «قال ابو الفتح بن جني : كنت قرأت ديوان المتنبي عليه فلما وصلت الى قوله : أغالب فيك الشوق والشوق أغلب ـ القصيدة ،

قلت له : يعز علي ان يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة ، فقال : حذرناه وانذرناه ... ألست القائل فيه :

أخا الجـود أعط الناس ما أنت مالـك

ولا تعطيـن النـاس مـا انا قائـل

فهو الذي اعطاني لكافور بسوء تدبيره وقلة تمييزه»[٢٧] ،فموقف سيف الدولة المتأرجح بين الشاعر وحساده ، خلف نوعا من المعاناة ، كانت وطأتها ثقيلة على كبرياء المتنبي ووجدانه ، لانه احب سيف الدولة واطمأن اليه ولم يخجل من مدحه وتطلع الى تحقيق الامجاد في غزواته وحروبه . ولكن الامير غافل وأبا محمد وحيد ، عدته موهبته الشعريـة ، ومبغضوه كثيرون ، ووسائلهم متنوعة ، منها الاكاذيب والمكائد ، لايهدأ لهم بال حتى ينهوا مابين الشاعر وصاحبه .وبدأ صراع مرير خفي بين المتنبي والحساد : اما ان ينتصر او يندحر ، والمحكم هنا سيف الدولة ، وعليه وحده تتوقف نتائج الصراع والحلبة في حلب ، وله ان يقرر الى أي الجانبين يميل ، هل يبيع الموهبـة الشـعرية العاليـة بأقوال الحاسدين ؟ واين تصير رعايته للشعر وحبه للخلود فيه ؟ وشمر المتنبي عن ساعديه ، ولم يملك سوى الشعر يدفع به الحساد ويدير الصراع ، فليتخذه درعا واقيا ، ولينبه سيف الدولة الى الام الجلل ، فهو الخصم والحكم ، وهو المجد والخيبة[٢٨] :

ازل حسـد الحسـاد عنـي بكبتهـم

فأنـت الـذي صيرتهم لـي حسـدا

فسيف الدولة خلق طبقة من الحساد أزعجوا الشاعر بأراجيفهم واقوالهم ويتحتم عليه ان يزيلهم من الطريق ، وان يهيء له اجواء الابداع ، فان خذله اوقع به بعد ان : «جذب بضبعه ورفع من قدره»[٢٩] ، واتاح للحسـاد ان يشمتوا ، والشاعر يبحث عن عذر[٣٠] :

وللحسـاد عـذر ان يشـحـوا

علـى نظـري اليـه وان يذوبـوا

فأنـي قـد وصلـت الـى مكـان

اليـه تحسـد الحدق القلـوب

وحين وصل الى ذلك المكان لم يبال ان يسخط الناس جميعا ليرضى ممدوحه[31] :

وبمهجتي ياعاذلي الملك الذي
أسخطت كل الناس في ارضائه

فليس له سوى ان يحثه على الالتزام بمواقفه الاولى وعدم الاستماع الى الوشاة[32] :

رويدك ايها الملك الجليل
تأي وعده مما تنيل
وجودك بالمقام ولو قليلا
فما فيما تجود به قليل
لأكبت حاسدا وأرى عدوا
كأنهما وداعك والرحيل

فان آزره الامير ، في حلبة صراعه مع الحساد ، قضى عليهم بسيف يقطع الهام في غمده[33] :

اذا شد زندي حسن رأيك في يدي
ضربت بنصل يقطع الهام مغمدا
وما أنا الا سمهري حملته
فزين معروضا وراع مسددا

ويحث سيف الدولة ان يفرق بين الكريم واللئيم وان يحسن مواطن الرفض والقبول والقوة والضعف[34] :

اذا أنت اكرمت الكريم ملكته
وان انت اكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى

فسيف الدولة نفسه لم ينج من الحساد والمبغضين والحاقدين[٣٥] :

فدتــــك نفوســـ الحاسدين فانهـا
معــذبـــة في حضـــرة ومغيـــب

وفي تعـب من يحســد الشمس نورها
ويجهـــد ان يأتـي لهـا بضريـــب

وكان قد ضرب الامير خيمة ، وأشاع الحساد ان مقامه يتصل بهـا ، فهبت ريح شديدة فوقعت الخيمة ، فتكلم الناس في ذلك ، فنظـم المتنبي قصيدة ، منها[٣٦] :

فمـا العانــدون ومـــا أملـــوا
وما الحاســدون ومـــا قولـــوا

هم يطلبـــون فمـــن ادركـــــوا
وهـم يكذبـــون فمـــن يقبـــل

والامثلة كثيرة • ولكن هذه التعاويذ الشعرية لم تجد نفعا ولـم تحقق أملا ! وبقي موقف سيف الدولة يميل تارة مع الشاعر واخرى مـع الحساد وبدأت الارضية التي يقف عليها المتنبي في حلب تميد ، ولم يكن ممن يقبل الذل او يخلي مكانته في القمة للاخرين ، ولا ممن يقر بانتصارهم عليه ، فترك التنبيه والحث والاشارات البعيدة ولجأ الى العتاب ، وكان عتابه في البداية رقيقا حيا اشبه بهمس بين رفيقين او المناجاة بين حبيبين[٣٧] :

أرى ذلـك القـرب صـــار ازورارا
وصـار طويـل الســلام اختصـارا

تركتنـــي اليـــوم في خجلـــة
امـــوت مـرارا وأحيـــا مـــرارا

اســـارقـــك اللحـظ مستحييـا
وأزجـر في الخيــل مهـري سـرارا

وأعلم أني اذا ما اعتذرت

اليك أراد اعتذاري اعتذارا

فلا تلزمنّي ذنوب الزمان

الي أساء واياي ضارا

وعندي لك الشرد السائرا

ت لايختصصن من الارض دارا

قوافٍ اذا سرن عن مقولي

وثبن الجبال وخضن البحارا

ولي فيك ما لم يقل قائل

وما لم يسر قمر حيث سارا

فلو خلق الناس من دهرهم

لكانوا الظلام وكنت النهارا

ويسفر ابو الطيب ، حين لاينفع العتاب ، عن شعوره الحقيقي ورفضه للواقع المهين ، ولموقف سيف الدولة المضطرب ، ويطرق بصوت جديد لايعرف المهادنة والمراوغة ، ويعلي من شأن كبريائه ، ويحل العنف الشعري مكان اللوم والعتاب ، لعل فيه خلاصا ، ويطلع على سيف الدولة بقصيدته الخالدة التي تفصح عن سمات الشاعر ودواخله النفسية اكثر من اية قصيدة اخرى . وكانت رد فعل شعري قوي للحساد والمناوئين ومواقف سيف الدولة منهم(٣٨) :

واحر قلباه ممن قلبه شبم

ومن بجسمي وحالي عنده سقم

ولم تجد هذه القصيدة شيئا(٣٩) ، رغم حممها الثائرة وتقريع سيف الدولة الواضح والتعريض به ، وما عاد امام الشاعر سوى الرحيل ، فقد وصل به الامر ان يهينه ابن خالويه بالضرب ، اثر مناقشة لغوية ، فلا ينتصر له سيف الدولة . قال المتنبي لابن خالويه ، بعد ان أخرج من كمه مفتاحا

ليضربه به : «...اسكت ويحك ، فانك أعجمي واصلك خوزي ،فما لك وللعربية ؟ فضرب المتنبي بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه ،فغضب المتنبي اذ لم ينتصر له سيف الدولة لاقولا ولا فعلا ، فكان ذلك احد أسباب فراقه»[٤٠] ، ويرى محمود محمد شاكر ان هذا الفراق حصل لاسباب اقتضاها حب ابي الطيب لخولة أخت سيف الدولة[٤١] ،وينحي بعض الكتاب باللائمة على الشاعر ، وكأن لم يكن للحساد ذنب :«...تعتب وتظلم وكان هو الظالم لنفسه ، ... في طبعه استدعاء عداوات الناس لانه كان عريضا كثير التعريض والتصريح لندماء سيف الدولة ، شديد الزهو والافتخار عليهم ، ... وكانوا عصبة ، وآل الامر الى ان غلبوه وازعجوه عن حضرة سيف الدولة وأخرجوه من نعمته»[٤٢] .

ويشد المتنبي الرحال الى مصر ، ويظل وفيا لسيف الدولة ، ويلاحقه حساد حلب وهو في مصر ، ويشيعون انه قد توفي وينعونه في مجلس الامير[٤٣] :

يامن نعيت على بعدٍ بمجلسه
كل بما زعم الناعون مرتهن

كم قد قتلت وكم قد مت عندكم
ثم انتفضت فزال القبر والكفن

قد كان شاهد دفني قبل قولهم
جماعة ثم ماتوا قبل من دفنوا

وكان قد اشار ، في قصائد يمدح بها كافورا ، الى سيف الدولة اشارات كثيرة تفصح عن حبه ووفائه الدائم له ، ولكن ما الذي يفعل الشاعر وقد استمع ممدوحه الى قول عداته ، وتلبسه الشك من كل جانب[٤٤] :

فلو كان مابي من حبيب مقنع
عذرت ولكن من حبيب معمم

رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى
هوى كاسر كفي وقوسي وأسهمي

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عداته

وأصبح في ليل من الشك مظلم

ويخاطب قلبه ويطلب منه الوفاء لمن نأى وغدر ولم يرزق جوده خلاصا من الاذى[٤٥] :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى

وقد كان غداراً فكن لي وافيا

اذا الجود لم يرزق خلاصا من الاذى

فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا

ويأتيه في العراق نعي أخت سيف الدولة فيكتب اليه قصيدة ، يقول فيها[٤٦] :

أرى العراق طويل الليل مذ نعيت

فكيف ليل فتى الفتيان في حلب

يظن ان فؤادي غير ملتهب

وان دمع جفوني غير منسكب

بلى وحرمة من كانت مراعية

لحرمة المجد والقصاد والادب

ياأحسن الصبر زر أولى القلوب بها

وقل لصاحبه ياأنفع السحب

وأكرم الناس لامستثنيا أحدا

من الكرام سوى آبائك النجب

ويدرك سيف الدولة مافعل ، ويندم ويأسى ، ويود لو يعود الشاعر ، ويكتب له ، ويهم المتنبي بالرجوع ، ولكنه يخاف الوشاة والحساد ان

يعاودوه ويخشى النميمة والكذب ، فيمتنع ، وهكذا استطاع الحساد ان يبعدوه عن سيف الدولة وان يمنعوا عودته اليه ، وان يكونوا سدا منيعا بينهما ، وظل اللقاء املا لايتحقق ، وخلف في قلبيهما جرحا لايندمل(٤٧) :

فهمت الكتاب أبر الكتب
فسمعا لامر أمير العرب
وطوعا له وابتهاجا به
وان قصر الفعل عما وجب
وما عاقني غير خوف الوشاة
وان الوشايات طرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم
وتقريبهم بيننا والخبب
وقد كان ينصرهم سمعه
وينصرني قلبه والحسب
وما لاقني بلد بعدكم
ولا اعتضت من رب نعماي رب
واني لاتبع تذكاره
صلاة الاله وسقي السحب

وتحقق ما اراد الحساد ، ولم يستطع فارس العصر وشاعره ، ان يصمدا امام المكيدة والحقد ، او ان يلتقيا بعد فراق ، ونأى المتنبي عن سيف الدولة ، وانفرط ما انعقد بينهما ، وكان يحث كافورا ان يثأر له من اولئك الحساد وان يوليه مقاطعة تحزنهم وتغيظهم فينتصر عليهم الشاعر ، ويسعد بعد شقاء ، ويرفل في اثواب المجد(٤٨) :

ابا المسك ارجو منك نصرا على العدا
وآمل عزاً يخضب البيض بالدم
ويوما يغيظ الحاسدين وحالة
أقيم الشقا فيها مقام التنعم

ويبدأ طور مأساوي جديد بين الشاعر وبين ممدوح آخر ، ولم يكن كافور يجهل ان طموح المتنبي لا حدود له ، فلم يمكنه مما أراد .خوفاً على ملكه اولا ، ثم ان شاعرا من قبل لم يطلب ان يشارك الممدوح الحكم ليغيظ حساده وينال منهم ، ولولا اولئك الحساد لما غادر المتنبي حلب ، ولما مدح كافورا ، ولما أورث ذلك المدح ندما ، ولما انعكس ذلك الندم هجاءا [٤٩] .

وبعد رحلة الثأر من الحساد الخائبة في مصر ، يهرب الشاعر فيتعقبه جند كافور ، وينجو ويذيع قصيدته الشهيرة في هجائه ،ومنها[٥٠] :

اذا أردت كميت اللون صافية
وجدتها وحبيب النفس مفقود

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها
أني بما أنا باك منه محسود

ويذكر في المقصورة[٥١] ، خروجه من مصر والنوق السريعة التي اجتازت به المهالك ، وما لقي من احداث ، ويفخر ويهجو كافورا لانه لم يثأر من حساده •

ويرافق الحسد ابا الطيب في كل مكان ، قبل رحلته الى مصر وبعدها ، وكان له مناوئون أقوياء من بين رجال عصره الذين لم يتمدحهم او لم ترضهم اماديحه القليلة لهم ، فادركوا انه يستهين بهم ولايجدهم يستحقون مديحه ، وليس لهم من طريق الى الخلود غير الشعر ، والمتنبي يضن عليهم به ،فغضبوا وثاروا وهددوا وتوعدوا ، وتجمعت عندهم طبقات اخرى من الحساد والوشاة ، وأغروا بأبي محسد شعراء وكتابا وجدوا مجالا رحبا للنيل منه ، بقصائد ورسائل ، ووسائل اخرى • فكان ان اقترن حسد هؤلاء باولئك ومما تذكر كتب الادب : ان ثلاثة من بني حيدرة لعداوة بينهم وبين المتنبي قالوا لصاحب طرابلس ، ابن كيغلغ ، حين مر الشاعر بها : مانحب ان يجاوزك ولم يمدحك ، مع معرفتهم بترفعه عن مدحه ، فراسله وسأله ،فاحتج بيمين الى مدة ،فسد عليه الطرق حتى تنتهي فيمدحه ، واضطر الشاعر ان يهرب وأذاع قصيدة في هجائه[٥٢] •

واستطاع احد حاسديه وهو الاعور ابن كروس ،ان يفسد عليه ممدوحه بدر بن عمار ، حين سار الى طبرية وتخلف عنه الشاعر فكتب له ابن كروس : «ان ابا الطيب انما تخلف عنك رغبة بنفسه عن المسير معك ، وبلغ ذلك ابا الطيب فثارت نفسه وعزم على الرحيل وخاف ان يسلمه بدر الى اعدائه فيرصدوا له ويفتكوا به على غرة »(٥٣) ، وكان قد خاطبه بقوله(٥٤) :

عدوي كل شيء فيك حتى
لخلت الأكم موغرة الصدور

فلو اني حسدت على نفيس
لجدت به لذي الجد العثور

ولكني حسدت على حياتي
وما خير الحياة بلا سرور

واتخذ قوم الهجاء وسيلة للايقاع به فكتبوا قصيدة في هجاء الحسين ابن اسحاق التنوخي ونحلوها ابا الطيب ، فكتب اليه يعاتبه ، فقال (٥٥) :

أتنكر ياابن اسحاق اخائي
وتحسب ماء غيري من انائي

وهبني قلت هذا الصبح ليل
أيعمى العالمون عن الضياء

تطيع الحاسدين وانت مرء"
جعلت فداءه وهم فدائي

ومن اعداء المتنبي ابن حنزابة ، وزير كافور : «فقد جر المتنبي على نفسه كثيرا من الصعاب بمصر ، بترفعه عن بطانة كافور ووزيره ابن الفرات المعروف بابن حنزابة»(٥٦) ، الذي جمع كتبه وجمهرة من الادباء وجهد لينفي عن المتنبي فضله في نظمه لهذا البيت :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي
وانثني وبياض الصبح يغري بي

وابتكاره لمعناه دون اقتباس او سرقة او اتكاء على بيت شاعر اخر ، وذهبت جهود ابن حنزابة ، نبطي مقصورة المتنبي[٥٧] ، الذي الف كتابا في اسماء الرجال والانساب [٥٨] وجماعته سدى [٥٩] ، وكان ابن وكيع من انصار الوزير فألف رسالة سماها :«المنصف للسارق والمسروق من المتنبي» ، قال عنها ابن رشيق :«مابعد كتاب المنصف من الانصاف»[٦٠] .

ومن حساد ابي محسد ومبغضيه ابو الفضل بن العميد ،«وكان يخاف ان لايسدحه»[٦١] ، دخل عليه احد اصحابه :«قال : فوجدته واجما وكانت قد ماتت اخته عن قريب فظننته واجدا لاجلها فقلت لايحزن الله الوزير فما الخبر ؟ قال : انه ليغيظني امر هذا المتنبي واجتهادي في ان أخمد ذكره وقد ورد علي نيف وستون كتابا في التعزية ، مامنهاالا وقد صدر بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر

فزعت فيه بآمالي الى الكذب

حتى اذا لم يدع لي صدقه أملاً

شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل الى اخماد ذكره ؟ فقلت : القدر لايغالب ، والرجل ذو حظ من اشاعة الذكر واشتهار الاسم ، فالاولى ان لا تشغل فكرك بهذا الامر»[٦٢] ، وقد مدحه المتنبي بالرغم من ذلك[٦٣] ، ووصفه بانه الاسكندر في ملكه وارسطو في علمه وبطليموس في حكمته[٦٤] .

وأحب الصاحب بن عباد ان يمدحه المتنبي : « فلم يقم له وزناً »[٦٥] ولم يقصده فجزع وسخط [٦٦] ، « واتخذه الصاحب غرضا يرشقه بسهام الوقيعة ، ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينعى عليه سيئاته»[٦٧] فكتب رسالته : «الكشف عن مساويء المتنبي» [٦٨] ،ولم تكن هذه المساويء تستحق بحثا وعناءا ، فألف الجرجاني كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه : «...فأحسن وأبدع وأطال وأطاب وأصاب شاكلة الصواب ...»[٦٩] ؛ ومما قاله الجرجاني :«وما زلت أرى اهل الادب ــ منذ ألحقتني الرغبة بجملتهم ، ووصلت العناية بيني وبينهم ــ في أبي الطيب احمد بن الحسين المتنبي فئتين : من مطنب في تقريظه ، منقطع اليه بجملته ... يتلقى مناقبه

اذا ذكرت بالتعظيم ، ويشيع محاسنه اذا حكيت بالتفخيم ... وعائب يروم ازالته عن رتبته ، فلم يسلم له فضله ، ويحاول حطه عن منزلة بوأه اياها أدبه فهو يجتهد في اخفاء فضائله ، واظهار معايبه ، وتتبع سقطاته ، واذاعة غفلاته، وكلا الفريقين اما ظالم له او للادب فيه ...»[٧٠] ، ووجه الجرجاني خطابه الى الصاحب بن عباد : « وأقبل عليك ايها الراوي المتعتب فأقول لك : خبرني عن تعظمه من اوائل الشعراء ، ومن تفتتح به طبقات المحدثين ، هل خلص لك شعر احدهم من شائبة وصفا من كدر ومعابة ؟ ... فأبو الطيب واحد من الجملة ،فكيف خص بالظلم من بينها، ورجل من الجماعة فلم افرد بالحيف دونها ؟ فان قلت: كثر زلله، وقل احسانه ،واتسعت معايبه ، وضاقت محاسنه، قلنا : هذا ديوانه حاضرا وشعره موجودا ممكنا ، هلم نستقرئه ونتصفحه ، ونقبله ونستحنه ، ثم لك بكل سيئة عشر حسنات ، وبكل نقيصة عشر فضائل ... »[٧١] ولم يتورع الصاحب بن عباد ، بالرغم من كشفه ، ان يسرق بعض معاني المتنبي [٧٢] ، وان يغير كلمات في اشعاره ليعيبها عليه [٧٣] .

ولعل الوزير المهلبي ، الذي لم يمدحه الشاعر ،من اخطر المناوئين والاعداء : «ولما قدم ابو الطيب من مصر بغداد ، وترفع عن مدح المهلبي الوزير ، ذهابا بنفسه عن مدح غير الملوك ، شق ذلك على المهلبي ، فاغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه ، وتباروا في هجائه ،ومنهم ابن الحجاج وابن سكرة الهاشمي ، والحاتمي ، واسمعوه ما يكره ، وتماجنوا به ، وتنادروا عليه فلم يجبهم ، ولم يفكر فيهم ، وقيل له في ذلك ، فقال : اني فرغت من اجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء .

أرى المتشاعرين غروا بذمي
ومن ذا يحمد الداء العضالا

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مراً به الماء الزلالا

وقولي :
أفي كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاويني قصير يطاول،

لســـاني بنطقي صامت عنـــه عـــــادل

وقلبــي بصمتـــي ضاحك منــه هـــازل

وأتعـــب مـــن ناداك مـــن لا تجيبـــه

وأغيـــظ مـــن عـــاداك من لا تشاكـــل

وما التيـــــه طبـــي فيهـــم غير أننـــي

بغيـــــض الـــى الجاهـــــل المتعاقـــل

وقولـــي :

واذا أتتـــك مذمتـــــي مـــن ناقـــــص

فهي الشهادة لـــي بأني كامـــل »[٧٤] .

وليت الشاعر التزم بتعاليه واحتقاره للحساد ، ولم يهتم بهم ولم يتح لهم مجال اهدار طاقاته ومواهبه وأحاسيسه ، بالادلال عليهم ومحاولـة اغاظتهم وتوعدهم وتحديهم ورد مكائدهم ،وما أروع موقفه مـــن ابـــن الحجاج ورده البليغ عليه حين امسك بلجام دابته ، بتحريض من المهلبي ، وانشده شعرا مقذعا في ملأ من الناس ، وحاول النيل منه ، فصبر عليـــــه حتى انتهى ، وانصرف دون ان يفوه بكلمة [٧٥] .

وكان المهلبي قد حرض الحاتمي على النيل منه : «سامني هتك حريمه وتمزيق أديمه ووكلني بتتبع عواره وتصفح اشعاره واحواجه الى مفارقة العراق » [٧٦] ، فحاوره الحاتمي وناظره وظن انه نال منه ، ففرح المهلبـي وذهب الى معز الدولة يبشره بما حدث :«أعلمت ما كان من ابي علي الحاتمي والمتنبي ، فانه شفى منه صدرا»[٧٧] ، « فموقف الحاتمي من المتنبي معروف ، كله تحيف وتحامل لانه صنيعة من صنائع المهلبي ومعز الدولة بن بويه»[٧٨] ، وما اضيع هـــذين الرجلين اللذين يســـعدان باهانـــة الشـــاعر والتعريض به ، « قال أبو علي الحاتمي : كان ابو الطيب عند وروده مدينة السلام ، قد التحف برداء الكبر والعظمة ، يخيل اليه ان العلم مقصور عليه ، وان الشعر لايغترف عذبه غيره ... وتخيل ابو محمد المهلبي انه لايتمكن احد مـــن مساجلته ومقارعته ، ولايقوم لمجادلته ، والتعلق بشيء من مطاعنه ، وساء معز الدولة ان يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه ، ولم يكــــن

بسلكته أحد يسائله فيما هو فيه ولا يساويه في منزلته يبدي لهم عواره ويكفي آثاره ويهتك استاره ... فتنوخيت ان يجمعنا مجلس اجري أنا واياه في مضماره ليعرف السابق من المسبوق...»[٧٩] ، واتهم المتنبي بالسرقة ونفى عنه التوليد والابتكار :«ما أعرف لك احسانا في جميع ماذكرت ، وانما أنت سارق متبع ، وآخذ مقصر ، وفيما تقدم من هذه المعاني مندوحة عن التشاغل بها»[٨٠] ، والسرقة الادبية قضية معقدة متشعبة ، طال حديث الاقدمين عنها ، وبحثهم فيها ، ولاشك ان اتهام الحاتمي باطل ، فيه من التحامل والغلو ما يشين ، وقد ناقش كثير من الكتاب مسألة اتهام المتنبي بالسرقة واظهروا خطل ماذهب اليه الحاتمي وغيره[٨١] ، «واحيا المتنبي كثيرا من موتى الشعراء ، فلولاه ما ذكروا ،ذكرهم نقاده اذ زعموا انه سرق هذا او ذاك المعنى منهم فعاشوا»[٨٢] ، وكان المهلبي نفسه الذي دفع الحاتمي الى اثبات سرقات المتنبي ، قد سرق بعض معاني الشاعر[٨٣] .

ورأى الحاتمي ان حكم المتنبي مستمدة ومقتبسة من اقوال ارسطو[٨٤] وقد أخطأ فيما ذهب اليه مرتين : **الاولى** حين فهم حكم الشاعر ابياتا مفردة او انصاف ابيات مجردة من النص ومن ظروف نظمها واحاسيس صاحبها ، وكان ابو الطيب قد اتخذها ستارا يضم كثيرا من معان خفية بعيدة تومىء الى مالا يستطيع الافصاح عنه مباشرة ، وهدف من ورائها الى مقاصد ابعد غورا من حكمة ظاهرة ، وقد اثبتنا ان كثيرا من حكم المتنبي ليست حكماً ، وأن المتنبي ليس شاعرا حكيما كما عرف عنه [٨٥] . والثانية : ان حكم المتنبي ، حتى ولو قيلت لغرض حكمي فلسفي محض ، بينها وبين اقوال ارسطو فروق وتفاوت وتباين ، ولم يدرك الحاتمي ان التجارب الانسانية تتشابه وقد يخرج مفكران بنتيجة واحدة اثر تجربة مماثلة .

وحاول المهلبي ان يحط من نسب المتنبي ايضا : «وظل الناس يلهجون مدى الف عام ان أباه كان يعرف بعبدان او عيدان السقاء . ولكن هذه الدعوى لم يتردد صداها في التاريخ الا منذ عام ٣٥٢ ﻫ بعد وقيعة شعراء بغداد فيه باغراء الوزير المهلبي وذلك قبيل سفره الى فارس »[٨٦] ، وقد نفى هذه المسألة كتاب قدماء كالعميدي الذي أشار في «الابانة» الى جلالة نسبه[٨٧] ،

ومحدثون ومنهم : عمـر فروخ ورضوان الشـهال ومحمود شـاكر[٨٨] ، وعبدالغني الملاح[٨٩] .

ولعل لعضد الدولة ، أحد رجالات عصره ، يدا في مقتله ، وبالرغم من مدائح المتنبى له[٩٠] ، فقد وغر فيصدره حقد على الشاعر وحسد لممدوحيه السابقين كسيف الدولة : «...وقيل :سبب قتله انه لما ورد على عضد الدولة ومدحه وصله بثلاثة الاف دينار وثلاثة أفراس مسرجة محلاة ، ثم دس من يسأله : أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة ؟ فقال : ان سيف الدولة كان يعطي طبعا وعضد الدولة تطبعا ، فغضب عضد الدولة ، فلما انصرف جهز اليه قومـا من بني ضبة فقتلوه ... »[٩١] ، ويؤيد د. فيصل السامر هـذه الرواية[٩٢] ، وينفيها عزام[٩٣] ، ويرى محمود محمد شاكر ان لكافور يدا في مقتله[٩٤] .

ومن العوامل التي زادت من حدة الخصومات حول الشاعر وألبت عليه الحساد والاعداء اعتزازه بعروبته وموقفه الصريح من الاعاجم ،وبعض من ملكوا وحكموا منهم[٩٥] :

وانمـا النـاس بالملـوك ومـا
تفلـح عـرب ملوكها عجـم
لا أدب عندهـم ولا حسـب
ولا عهـود لهـم ولا ذمـم

ولايعدم المتنبي حسادا مجهولين ، اكل الحقد قلوبهم ، لالسبب ظاهر : «...نقل بعض ائمة الادب ان رجلا من مدينة السلام كان يكره ابا الطيب المتنبي ، فآلى على نفسه الا يسكن مدينة يذكر بها ابو الطيب وينشد كلامه ، فهاجر من مدينة السلام ، وكان كلما وصل بلدا يسمع بها ذكره يرحل عنها حتى وصل الى اقصى بلاد الترك، فسأل اهلها عن ابي الطيب فلم يعرفوه ، فتوطنها فلما كان يوم الجمعة ذهب الى صلاتها بالجامع ، فسمع الخطيب ينشد بعد ذكر اسماء الله الحسنى :

أسـاميـا لـم تـزده معـرفـة
وانمـا لـذة ذكـرنـاهـا

فعاد الى دار السلام»[٩٦] .

وللمتنبي ، وما يتمتع به من صفات خاصة ، أثر كبير في تأليب الحساد وتأجيج الخصومات ، فهو متميز في شخصيته وافعاله ، معتد بنفسه ، مدل بسواهبه ، ذو كبرياء وطموح لايحد (٩٧) :

اذا غـامـرت في شـرف مـــروم
فـــلا تقنـــع بمـــا دون النجـــوم

يمتلك طاقة ديناميكية هائلة ، لم تأتلف وظروف حياته واحداث زمانه فظلت حبيسة تبحث عن منفذ ، ولا تجده ، وتتمثل في تناقض يتخذ اشكالا متنوعة من اقبال وادبار على امر بعينه ، ومديح وهجاء لشخص بذاته ، وحل وترحال ، وحدة وانفعال ، ورفعة وانخفاض ، وقبول هبات لاتتفق ونوازع الكبرياء في نفسه(٩٨) ، فاختلط الواقع بالوهم ، واضطرب القول والفعل ، وضاع المجد والطموح ، وتكونت لدى الشاعر هواجس مقلقة ، منها صروف الدهر والزمن العاتي(٩٩) ، ومنها الحساد وما صنعوا ، ومنها الرغبة في الحكم والتسلط ، والروح الآمرة الآسرة ، ولم يكن ما قيل عن ادعائه النبوة(١٠٠) ، سوى منفذ صغير واحد ، لم يدم طويلا ، وكان رأيه في ذاته يفوق ما للناس من آراء في ذواتهم ، ويصل احيانا حد التأليه لنفسه ، والتفوق على العالمين بشكل غريب غير مألوف ، فيه نرجسية وعصاب ، والا كيف نبرر قوله في صباه(١٠١) :

أمـط عنـــك تشبيهي بمـــا وكأنـــه
فما أحـد فـوقـي ولا أحـد مثلـــي

او ندرك لماذا يحتقر الناس (١٠٢) :

اي محـل ارتقـي اي عظيـم اتقـي
وكـل ماقـد خلـــق الله ومـــا لم يخلـــق
محتقـر في همتـي كشعـرة في مفـرقـي

او يضعهم تحت اخمصيه(١٠٣) :

ضـاق ذرعـا بأن أضيـق بـــه ذر
عاً زمانـــي واستكرمتنـــي الكـرام

واقفا تحت اخمصي قدر نفسي
واقفا تحت اخمصي الأنام

ولماذا يتخذ منهم مطية الى احد ممدوحيه(١٠٤) :

لو استطعت ركبت الناس كلهم
الى سعيد بن عبدالله بعرانا

ولماذا يعتبر أشعار غيره ضربا من النهيق(١٠٥) :

لم تزل تسمع المديح ولكن
صهيل الجواد غير النهاق

واية منزلة يريد ان يبلغه اياها الزمن دون ان يبلغها الزمن من نفسه (١٠٦):

أريد من زمني ذا أن يبلغني
ماليس يبلغه من نفسه الزمن

ان نوازع المتنبي المختلفة ،وشخصيته المتميزة المتسلطة اسهمت ،وبقدر كبير ، في خلق طبقة من الحساد ، يندر فيهم من يتخذ من موهبة الشاعر او تكوين الفنان عذرا لظواهر غريبة بدت منه ، وليس عجيبا ايضا ان يكون حول المتنبي مبغضون كثيرون ، فقدرته على خلق الاعداء هائلة ، وتعاليه الشامخ يقلق من يريد ان ينفرد او يتميز بشيء امامه ، وهذا ما حدا بسيف الدولة ان يعرض ويسيء ويستمع الى الوشاة ، وكان من الطبيعي جدا الا يأبه الشاعر بالحاسدين ، والا فكيف نوفق بين كبريائه وتعاليه وصلفه وبين اهتمامه المفرط الشديد بما يقولون ويفعلون ، بعد ان وصفهم بالضعة والحمق والتفاهة ، وكنا نود لو استطاع المتنبي ان يحيل ما يرد في بعض ابياته الى واقع حقيقي ملموس(١٠٧) :

لاتلق دهرك الا غير مكترث
مادام يصحب فيه روحك البدن

فيصفح ويستهين (١٠٨) :

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني
فلا أعاتبه صفحا واهوانا

وهكــذا كنت في أهلــي وفي وطنـــي
ان النقيــــس غــريب حيثمــا كانـــا

محمــد الفضــل مكــذوب علــى أثري
ألقــى الكمــي ويلقانــي اذا حانـــا

ولماذا لم يعنه رضى ممدوحه ، كما يقول ، في احتقار الحساد(١٠٩) :

غضب الحســـود اذا لقيتــك راضيـا
رزء أخــف علــي مــن أن يــوزنـــا

وكيف يكترث بمقلة عمياء(١١٠) :

واذا خفيــــت علــى الغبــي فعـــاذر
ان لا تــرانــــي مقـــلة عميـــاء

أو يلتفت الى الاضداد (١١١) :

وأرحــم اقوامــا مــن العي والغبـــا
وأعــذر في بغضـــي لانهــم ضــد

أو يهتم بمن لايساوون الخبز الذي يأكلون ، ويحملون الاراجيف وهم اهون منها ، فلايبالي ولا يداجي ولا يتوانى في امره ولايضعف ولا يعجز ويقضي على مناوئيه بسلاحين فتاكين : السيف والشعر ، ولكن الى اي مدى يتطابق القول والفعل ؟ لانجد في الواقع سوى الاهتمام الشديد بالحساد وما لفقوا(١١٢) :

ان الكــذاب الــذي أكــاد بـــه
أهــون عنــدي مــن الــذي نقلـــه

فـــلا مبـــال ولا مــــــداج ولا
فـــان ولا عاجــــز ولا تكلــــــه

ودارع سفتــــه فخـــر لقـــــــى
في الملتقـى والعجـــاج والعجلـــه

وســـامع رعتـــــه بقـافيـــــة
يحـــار فيهـــا المنقـح القولـــه

وربما يشهد الطعام معي

من لا يساوي الخبز الذي أكله

ويظهر الجهل بي وأعرفه

والدر در برغم من جهله

وليس لكلام الناس فيما يريبه جذور ولا لقائليه أصول ، ويرى انه يعادى بما يوجب الحب ، فما الذي نفس عليه الحساد : موهبته الشعرية العالية ؟ اعتداده بنفسه وقدراته ؟ طموحه وتطلعه الى المجد والرفعة ؟اهذا مايحتم البغضاء ، وينفي الحب والثناء ؟ ولكنه الحسد: داء لايقوى على شفائه احد[113]

وما لكلام الناس فيما يريبني

أصول ولا للقائليه اصول

اعادى على ما يوجب الحب للفتى

وأهدأ والافكار في تجول

سوى وجع الحساد داو فانه

اذا حل في قلب فليس يحول

ولاتطمعن من حاسد في مودة

وان كنت تبديها له وتنيل

ولماذا لا يقتفي آثار احد ممدوحيه في موقفه ازاء الحساد[114] :

ويحتقر الحساد عن ذكره لهم

كأنهم في الخلق ما خلقوا بعد

او موقف ممدوح اخر حمل حساده ان يموتوا غيظا فيحسدوا من يفتقر الى خلة الحسد ، ببلوغه الكمال فليس احد فوقه يحسده ، فأراهم مابهم من تقصير عنه ونقص دونه[115] :

قطعتهم حسدا أراهم ما بهم

فتقطعوا حسدا لمن لايحسد

فيعود يستجدي الايام ان تخطىء فتقرب حبيبا وتبعد بغيضا[116] :

أمـا تغلـط الايـام في بـآن أرى
بغيضـا تنائـي او حبيبـا تقـرب

ويتمنى ان يخلو شعره من عتاب وشكوى[117] :

ألا ليـت شـعري هـل اقـول قصيدة
فـلا اشـتكي فيهـا ولا أتعتـب

وكيف يثيره الحساد وهو عقوبة لهم ، وقد وطئت اقدامه كل هامة[118] :

اني وان لمـت حاسـدي فمـا
أنكـر أنـي عقـوبـة لـهم

وكيـف لا يحسـد امـرؤ علـم
لـه علـى كـل هامـة قـدم

فتصبح الحياة مع اولئك الحساد ابغض من الموت ، والليل اقصر من نهار مشوب بالحاظهم ، فهم نوائب الحدثان ، وليس له من مهرب سوى ان يمتطي الخطوب الى احد ممدوحيه[119] :

ومـا ليـل بأطـول مـن نهـار
يظـل بلحظ حسـادي مشـوبا

ومـا مـوت بأبغـض مـن حيـاة
أرى لهـم معـي فيهـا نصيبـا

عـرفت نوائـب الحـدثان حتـى
لـو انتسبـت لكنـت لهـا نقيبـا

ولمـا قلـت الابـل امتطينـا
الـى ابـن ابـي سلـيمان الخطوبـا

ويبلغ بـه خوفه وهلعه من الحساد الا يبوح بشكواه الى احد من الناس لئلا يكون واحدا منهم فيشمت به[120] :

ولا تشـك الـى خلـق فتشمتـــه
شـكوى الجريح الى الغربان والرخـم

ولا عجب فقد شمتوا حتى بموت جدته التي احبها كثيرا[١٢١] :

لئـن لـذ يـوم الشـامتين بموتهـا
فقـد ولـدت منـي لآنافهـم رغمـا

ولايغادر بلدا الى اخر الا وهو في خطر محيق من هؤلاء الحساد الذين لايخلو منهم مكان[١٢٢] :

لا اقتـري بلـــدا الا عـلى غـــرر
ولا أمـر بخلـق غـير مضطغـــن

وحمل هؤلاء الحساد ابا الطيب ان يغلو في تعاليه وكبريائه وصلفه وطموحه وان يزداد عتوا وصلابة كرد فعل للحساد وكعلاج مضاد له يدفع المحنة ويخفف من الآثار الدامية[١٢٣]

ولاتحسـبن المجـد زقـاً وقينـــة
فما المجـد الا السيف والفتكـة البكر
وتضريب اعنـاق الملـــوك وان تـرى
لـك الهبوات السود والعسكر المجـر
وتركـك في الدنيـا دويـا كأنمـا
تداول سـمع المـرء أنملـه العشـر

★ ★ ★

ان اكـن معجبـا فعجـب عجيـب
لـم يجـدفوق نفسـه مـن مزيـد
أنا تـرب النـدى ورب القـوافـي
وسـمام العـدا وغيـظ الحسـود

★ ★ ★

وفـؤادى من الملـــوك وان كـــا
ن لســـانـي يـرى مـن الشــعراء

★ ★ ★

يقولـون لـي ما انت في كـل بلــدة
وما تبتغي ؟ ما أبتغي جـل ان يسـمى
كـأن بنيهـم عالمـون بأننـــي
جلـوب اليهـم مـن معادنـه اليتمـا

والامثلة كثيرة . والحساد كثيرون ، وعوامل الحسد وبواعثه لاتحصى؛ وتأثيرهم في المتنبي لايحد . ولا اظن ان شاعرا في العربية ،وربما في غير العربية وقع تحت تأثير الحسد ، وكان ضحية له ، بشكل ما كأبي الطيب ، فلعب حاسدوه في حياته ادوارا غير مشرقة ، وجهت تصرفاته واعماله ، واربكت مزاجه ونوازعه ، ودفعته الى الكبر والغرور ، كتعويض بائس ،والى ارادة التسلط والحكم ، للكيد والتحدي ، وأدت به الى المصير المأساوي المؤلم : القتل في الصحراء ، والبقاء في العراء ، اياما حتى اتت العقبان على ما ابقى الحساد منه . لم يقتله الهجاء وحده !

وهرب ابنه محسد من الموت وعاد ليحمل كنوز ابيه من كتب ودفاتر فقتل ايضا . وكان الشاعر يود لو يكنى ، في حياته وبعد مماته ، بأبي محسد واوصى بذلك ، ولم يرتض الالقاب الاخرى ، فأي حزن يمكن ان تورث هذه الرغبة !؟ ولم تحقق الايام ما أراد . وضاع دم محسد وابيه هدرا .

ولم تنته رحلة الحسد بموت الشاعر ، اتخذت مسارا جديـدا ، في كتابات بعض الباحثين ، من قدماء ومحدثين ، وما لفقوا ،بخيالهم المريض ،من أخبار وحكايات وآراء ودراسات(١٢٤) ، ولم تكفه في حياته جهود حساده لتجريده من مواهبه ، والصاق تهمة السرقة به ، ووصمه بالضعف اللغوي، والصناعة والافتعال ، وسلبه من فضل ابتكار المعاني الفلسفية في اشعاره وارجاعها الى ارسطو واقواله ، واستعداء رجالات العصر عليه ، وتحريض ممدوحيه للغدر به ، والايغال في شرفه ونسبه واخلاقه . ولكن الشاعر بقي

شامخا مدلا بتفوقه ، عبر رحلة الحسد ، وان انهكته واتعبته ، وانحسر الحساد الى غياهب الماضي • فهل يجوز لنا ان نجنح بالخيـــال فنتصور الشاعـر بعيدا عن الحاسدين ، مبرأ من الحاقدين ، يوجه مايملك لتطوير وتطويع قدراته ، لايشغله هجاء ولايهمه حسد قيطول بقاؤه في هذه الارض ،وتكثر قصائده ، ويزداد تراثه الشعري ، ويثري الادب العربي بمعطياته ؟ ولكنه محض تصور يعين على استيعاب أثر الحساد والحاقدين في حياةالمبدعين •

ان حساسية الفنان توقعه في شباك الحاسدين ،ضحية سهلة ، حين تزعزعه كلمة ،او تقلقه التفاتة ، او يركبه وهم ، او يقض مضجعه هاجس ! وحين يتيح لهم ان يدركوا مكامن الضعف فيه • ونزعة التفوق عند الشاعر وتميزه وانفراده ، وشمولية وعيه وادراكه ، وعمق تفكيره ونفاذه ، من مكونات روح شفافة رقيقة ، سريعة العطب والتأثر ، ردود افعالها اقوى واعنف بكثير مما تلاقيه من احداث ، تنكمش وتنفتح ، تفرح وتحزن ،في وقت واحد ، لامر عابر او اشارة غير مقصودة ، لايلتفت اليها الافالناس ،في الاف أيامهم ولا يعيرونها اهتماما ، وتلك «شهادة الكمال» وضريبة اخرى يدفعها المتفوقون والمبدعون ، ولكل شيء ثمن •

ودفع شاعرنا ثمن التفوق والموهبة مـن ذوب وجدانه واعصابـه واحساسه ، واحداث زمانه وحياته ولم يحمل معه تعويذة تقيه الحسد • وكان على العصر ان يرعى هذا الشاعر المتميز ، ولكنه ككل العصور ، وابو الطيب ككل المبدعين •

ولا يخفف من وطأة هذا الحسد سوى احتقار أصحابه ، فلا يحظون باهتمام ، الا في بحوث تحاول ان تعري عريهم بعد اكثر من ألف عام •

---

(١) ينظر للمؤلف : التكسب بالشعر ، بيروت ١٩٧٠ ، ص٥٦ وما بعدها .

(٢) ينظر : ديوان ابي الطيب المتنبي ، بشرح ابي البقاء العكبري ،تحقيـق مصطفى السقا وآخرين ، ط٢ ، القاهرة ١٩٥٦ ،ج١ ، ص٢٤٢ ،٣٢٣ . واليه نشير فيما نورد من نصوص شعرية .

(٣) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد ،ط٢ ، القاهرة ١٩٥٦ ،ج١ ، ص٢٧ .

(٤) لتفصيلات وافية عن قيام الدولة الحمدانية ، ومكانة سيف الدولة ، ينظر: د . فيصل السامر ، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ، ج٢ ، بغداد ١٩٧٣ ، وفيه فصل عن المتنبي في حلب ، ص٢٧٢ ومابعدها .

(٥) يتيمة الدهر ١ـ٢٧ .

(٦) المصدر السابق ٢٨ .

(٧) المصدر السابق ٢٧ .

(٨) يوسف البديعي ، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، تحقيق مصطفى السقا واخرين ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص٧١ . وينظر : راي محمود محمد شاكر في هذه المسألة ، المقتطف ، المجلد ٨٨ ، القاهرة١٩٣٦ ، ص١١٠ .

(٩) الصبح المنبي ٧١ .

(١٠) البغدادي ، خزانة الادب ، القاهرة ١٣٣٧هـ ، ج٢ ، ص٣٠٨ .

(١١) شاكر ٦٦ .

(١٢) عن بلاشير ، ينظر : محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص١٦١ .

(١٣) الديوان ٢ـ٣١٤ . وينظر : الصبح المنبي ٣١٤ .

(١٤) الديوان ٢ـ٣١٤ .

(١٥) يتيمة الدهر ١ـ٤١ ٢.

(١٦) الصبح المنبي ٨١ .

(١٧)ـ(١٩) ينظر : احسان عباس ، تاريخ النقد الادبي عند العرب ، بيروت ١٩٧١ ، ص٢٧٠ ، ٢٧١ ، ومصادره .

(٢٠) الصبح المنبي ٨١ .

(٢١) المصدر السابق ٨٠ . وينظر : د. فيصل السامر ٢٩٣ .

(٢٢) الصبح المنبي ٨٠ . وتنظر : يتيمة الدهر ٢ـ١٢٥ .

(٢٣) الديوان ٣ـ٣٤٠ .

(٢٤) الصبح المنبي ٨٨ .

(٢٥) خزانة الادب ٢ـ٣٠٦ .

(٢٦) ينظر الديوان : ج١ ، ص١٧ ، ٢٥٩ . ج٢ ،ص ١٨ ، ٢٠٧ ، ٣٦٢ ، ٣٧٢ ، ٣٨٤ . ج٣ ، ص ٢٦٤ .ج٤ ، ص١٣٣ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ .

(٢٧) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد ، ج١ ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص١٠٤ .

(٢٨) الديوان ١ـ٢٨٩ .

(٢٩) يتيمة الدهر ١-١٢٦ .

(٣٠)-(٣٨) الديوان ، ج١ ، ص٧٥ ، ٢٠ج٣ ، ص٣ ٠ج١ ، ص٢٩٠٠ ، ٢٨٨ ، ٥٦٠ ج٣ ، ص٧٠٠ ج٢ ، ص٩٤٠ ج٣ ، ص٣٦٢ .

(٣٩) ينظر : الفصل الثاني من هذا الكتاب عن الحكمة والرمز ، وفيه دراسة وشرح واف لهذه القصيدة .

(٤٠) الصبح المنبي ٨٧ .

(٤١) شاكر ١٤٤ .

(٤٢) الراي لسعد بن محمد الازدي المعروف بالوحيد ، ينظر :تاريخ النقد الادبي عند العرب ،ص٢٨٩ .

(٤٣)-(٤٨)الديوان ، ج٤ ،ص ٢٣٥ ، ١٣٥ ، ٢٨٣ . ج١ ، ص٨٨ ، ٩٦ . ج٤ ، ص١٣٨ .

(٤٩) ينظر : الفصل الخاص بالمتنبي وكافور من هذا الكتاب .

(٥٠)-(٥٢) الديوان ، ج٢ ، ص٤١ ، ج١ ص٣٨ ، ج٤ ، ص١٢١ .

(٥٣) شاكر ٨٧ .

(٥٤)،(٥٥) الديوان ، ج٢ ، ص١٤٣ ، ج١ ، ص٩ .

(٥٦) محمد عبدالرحمن شعيب ، المتنبي بين ناقديه ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص٢٦. وينظر : الصبح المنبي ١١٣ .

(٥٧) اشارة الى قول المتنبي في المقصورة :

بهانبطي من اهــل الســـواد يدرس انساب اهل الفلا

(٥٨)شاكر ١٤٩ .

(٥٩) يتيمة الدهر ١-١٥٣ .

(٦٠) تاريخ النقد الادبي ٣١١ . وينظر : النقد المنهجي ١٧٥ وما بعدها .

(٦١) الصبح المنبي ١٤٦ .

(٦٢) المصدر السابق ١٤٧ .

(٦٣) الديوان ، ج٢ ،ص ٤٧ ، ٥٩ ، ١٦٠ .

(٦٤) المصدر السابق ٢-١٧٠ .

(٦٥) يتيمة الدهر ١-١٣٨ .

(٦٦) الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، القاهرة ١٩٦٦ ، المقدمة ،ص ب .

(٦٧) يتيمة الدهر ١-١٣٨ .

(٦٨) حققها الشيخ محمد حسن آل ياسين ، بغداد ١٩٦٥ .

(٦٩) يتيمة الدهر ١ــ١٣٨ .
(٧٠)،(٧١) الوساطة ٣ــ٥٣ .
(٧٢) يتيمة الدهر ١ــ١٤٥ .
(٧٣) الديوان ٣ــ١٣ .
(٧٤) يتيمة الدهر ١ــ١٢٧ .
(٧٥) ذكرى ابي الطيب ١٦٨ ،ومصادره .
(٧٦) تاريخ النقد الادبي ٢٦٣ .
(٧٧) الصبح المنبي ١٤٢
(٧٨) المتنبي بين ناقديه ٢٣٦ .
(٧٩) الصبح المنبي ١٢٨ .
(٨٠) المصدر السابق ١٣٤ .
(٨١) تنظر : الوساطة ، ص ٢١٦ ومابعدها . والمتنبي بين ناقديه ،ص١٨١ ومابعدها .
(٨٢) مارون عبود ، الرؤوس ، ط٣ ، بيروت ١٩٦٧ ،ص١٩٩ .
(٨٣) يتيمة الدهر ١ــ١٤٤ ومابعدها .
(٨٤) تنظر : الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام ارسطو، تحقيق فؤاد افرام البستاني ، بيروت ١٩٣١ .
(٨٥) ينظر : الفصل الثاني من هذا الكتاب .
(٨٦) ابراهيم العريض ، فن المتنبي بعد الف عام ، بيروت ١٩٦٢ ، ص٥٩ .
(٨٧) العميدي ، الابانة عن سرقات المتنبي ، تحقيق ابراهيم الدسوقي البساطي ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٢ .
(٨٨) شاكر ٩. وينظر : رضوان الشهال ، ابو الطيب المتنبي ، عملاق الواقعية في الشعر العربي ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١١ ومابعدها .
(٨٩) عبدالغني الملاح ،المتنبي يسترد اباه ،بغداد ١٩٧٤ .
(٩٠) الديوان ، ج٢ ،ص٣٨٥ ، ج٣ ص٢٩٩ ، ج٤ ، ص١٦٤ ، ٢٥١ ،٢٦٩ .
(٩١) الصبح المنبي ، ١٧٤ .
(٩٢) الدولة الحمدانية ٢٨١ .
(٩٣) ذكرى ابي الطيب ١٩٠ .
(٩٤) شاكر ١٦٦ .
(٩٥) الديوان ٤ــ٥٩ .

(٩٦) الصبح المنبي ١٦٠ .
(٩٧) الديوان ٤-١٩١ .
(٩٨) ينظر : التكسب بالشعر ، ص ٥٧ ومابعدها .
(٩٩) ينظر للكاتب : الفصل الخاص بالمتنبي في «الشعر والزمن» ، وزارة الاعلام -بغداد ١٩٧٥ ،ص٣٩ ومابعدها .
(١٠٠)ينظر : د. حسام الالوسي : «أضواء جديدة على نبوة المتنبي» ،مجلة كلية الاداب ، العدد ١٠ ، بغداد ١٩٦٧ .
(١٠١)-(١٢٣)الديوان ، ج٣، ص١٦١ .ج٢ ،ص٣٤١ .ج٤ ،ص٩٤ ، ٢٢٤.
ج٢ ، ص ٣٧١ .ج٤ ، ص ٢٣٣ ، ٢٢٣ ، ٢٠٧ .ج١ ،ص ١٥ ، ٣٧٧ .
ج٣ ، ص ٢٦٨ ، ١٠٩ . ج١ ، ص ٣٨٠ ، ٣٣٥ ، ١٧٧ ، ١٨١ .ج٤ ،ص ٥٩ .ج١ ،ص١٤٠ ، ج٤ ،ص ١٦٢ ، ١٠٧ ، ٢١٠ .ج٢ ، ص١٤٩.
ج١ ، ص٣٢٣ ، ٣٦ . ج٤ ، ص ١٠٧ .
(١٢٤)ينظر : محمد كمال حلمي ، ابو الطيب المتنبي ، القاهرة ١٩٢١ ، ص١٣٨ وما بعدها . ويعنى د . طه حسين بتأليف كتاب عن المتنبي يبداه بقوله : « وليس المتنبي مع هذا من احب الشعراء الي وآثرهم عندي ، ولعله بعيد كل البعد عن ان يبلغ من نفسي منزلة الحب او الايثار ، ولقد اتى علي حين من الدهر لم يكن يخطر لي اني سأعنى بالمتنبي او اطيل صحبته او اديم التفكير فيه ...» ، وينهيه بقوله :«اني حين اقبلت على صحبته لم اكن جادا ولا صاحب بحث ولاتحقيق وانما كنت عابثا» ، مع المتنبي ، القاهرة ١٩٦٠ ،ص٩ ، ٣٧٧ ويقول المازني في الفصل الخاص بالمتنبي ، في حصاد الهشيم ، ط٧ ، القاهرة ١٩٦١ ، ص١٢٦ :«وقد ابدأ قصيدة للمتنبي فلا اتم قراءتها ...ولكني على شغفي بغيره ، وقلة اقبالي ومواظبتي عليه ... اراني احفظ من شعره» ، ...الخ .والامثلة كثيرة .



المتنبي والحكمة

سأفترض هنا ان المتنبي ليس شاعر حكم ، كما هو مشهور عنه ،بتجريد وانفصال عن الحدث في القصيدة ، وان قسما من ابياته التي عرفت بين الناس على انها من الحكم كان يهدف من ورائها الى مقاصد اخرى لم يستطع ان يكشف عنها فتستر بالحكمة ، كالشاعر المحدث الذي لجأ الى الرمز والاسطورة احيانا ليعبر عن معان لايستطيع الافصاح عنها مباشرة[1] .وسأحاول ان ابين ان وحدة الموضوع يجب ان تتوافر في النص الادبي وفي ذهن من يقرأ ذلك النص ، لتتم عملية فهمه بصورة متكاملة ، وان من شروط هذه الوحدة عند الشاعر ان يعبر عن تجربة معينة او موقف محدد ،وعند القاريء ان يلم بالظروف النفسية التي احاطت بالشاعر حين نظم قصيدته . ولان فريقا من القراء والنقاد لايمكن ان يستوعبوا النص الادبي كاملا لعجالتهم ولتشتت افكارهم واهوائهم ولخطأ تاريخي ساد طريقتهم في تناول النص الشعري ، أظن ان قسما من شعرنا القديم والحديث لم يقرأ قراءة صحيحة وقد جزأنا ، عبر العصور المتعاقبة ، قصائد عديدة واخضعناها لرغبتنا الشخصية وقابلياتنا الثقافية .

ووجدت ان بعضا من طرقنا في دراسة النص الادبي يشبه الى حد بعيد عملية معمارية يقوم بها مهندس مخبول ، فاذا طلبنا منه ان يقدم تقريرا عن المواد الانشائية لعمارة انتهى بناؤها حديثا ، عمد الى تهديمها كليا ليدرس كل حجر بصورة منفصلة ثم يعود فيخضع المواد التي شاركت في تماسك البناء الى الاختبار فلا نحصل في النهاية الا على حطام مع تقرير ممتاز يشير الى جودة تلك المواد . فبعض الناس ينظرون الى الاثر الادبي جملة جملة او الى القصيدة بيتا بيتا ، لايستطيعون ان يحكموا على البناء الا بتهديمه وفحصه مجزءا ،لذا قال قسم من النقاد في معرض تناولهم لبعض النصوص ان الشاعر لو استعمل هذه الكلمة لكان اوقع .. الخ ، انهم يفتحون جزءا ضئيلا من الضوء على النص الادبي ويدرسون فقط ذلك الجزء المضاء ثم ينتهون منه فيسلطون الضوء

على جزء اخر وهكذا • يقول ابن رشيق : «انا استحسن ان يكون كل بيت قائما بنفسه لايحتاج الى ماقبله ولا الى مابعده»[٢] ،ولعله يقصد الاستقلال اللغوي او التركيبي ، فلا يصح في القصيدة القديمة ان ينتهي بيت بمبتدأ او فاعل ، خبره او مفعوله في البيت الثاني ، ولكن يجب ان يكون البيت منسجما والابيات الاخرى لتتم وحدة الموضوع ،وان يفهم من خلال القصيدة ، والاستعانة بظروف نظمها واحاسيس صاحبها وقت ابداعها ، ليتضح معناه فيها لا ان تعتبر القصيدة ، دوما ، مجموعة حكم او حقائق او صور منفصلة او تجارب مختصرة ، نجزئها كما نشاء ،ونقتطع منها ما نريد ،ونقرأ البيت الواحد فنقف عنده وكأن لاعلاقة بينه وبين الابيات الاخرى ،والقصيدة التي تفتقد وحدة الموضوع حقا ، ان كانت من الشعر الجيد ، ينتظمها اطار من مشاعر صاحبها ومن نوازعه ودوافعه وتطلعاته وحالته النفسية ، كما سنرى في قصيدة المتنبي ، وفهم هذا الاطار يعوض عن تلك الوحدة ، وما ذنب الشاعر اذا لم تبتعث قصيدته في ذهن القاريء وحدة ما ، فيجزئها ابياتا ويفهمها كما يشاء ولا يكون بمقدوره ان يستوعب فكرة الشاعر كاملة[٣] •ونعود الى حكم المتنبي ونتخذ من قصيدته التالية مثالا يظهر الى اي مدى تستطيع التجزئة أن تخرب النصوص الادبية ، فنتساءل : هل استطعنا بها ان نفهم قصيدته كما يجب ؟ وهل ادركنا موقفه بوضوح ؟مع التأكيد على ان مايصح في هذه القصيدة قد لايصح مع كل قصائده •

ورد في شرح العكبري ان المتنبي : «قال يعاتب سيف الدولة ، وانشدها في محفل من العرب ، وكان سيف الدولة اذا تأخر عنه مدحه شق عليه ، واحضر من لاخير فيه ، وتقدم اليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب ، واكثر عليه مرة بعد مرة فقال يعاتبه»[٤] :

واحر قلباه ممن قلبه شبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم
مالي أكتم حبا قد برى جسدي
وتدعي حب سيف الدولة الأمم
ان كان يجمعنا حب لغرته
فليت أنا بقدر الحب نقتسم

قد زرته وسيوف الهند مغمدة

وقد نظرت اليه والسيوف دم

فكان أحسن خلق الله كلهم

وكان احسن مافي الأحسن الشيم

فوت العدو الذي يممته ظفر

في طيه أسف في طيه نعم

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت

لك المهابة ما لاتصنع البهم

ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها

ان لا يواريهم ارض ولا علم

أكلما رمت جيشا فانثنى هربا

تصرفت بك في آثاره الهمم

عليك هزمهم في كل معترك

وما عليك بهم عار اذا انهزموا

أما ترى ظفراً حلواً سوى ظفر

تصافحت فيه بيض الهند واللمم

تحدث الناس عن هذه الابيات وأسهبوا في شرحها واعرابها ،ولم ينتبهوا الى التعريض باصحاب سيف الدولة في البيتين الثاني والثالث ، والى ضعف المديح في الابيات الاخرى ، مقارنة بينها وبين اماديح المتنبي ، والى اقتصار المديح على صفة الشجاعة التي عرفت عن سيف الدولة ، ولاقيمة لها فيالشعر ان لم يصاحبها الابداع في عرضها ، والى تكلف المتنبي في البيت الخامس باذ الممدوح احسن خلق الله، بما هو شائع من اطراء متداول بين أبسط الناس، يوحي الينا بأنه نظم ابيات المديح مرغما لينتهي الى مايريد ، وان هذه الابيات مقدمة لقصيدة تعاتب وتمدح وتوطىء لثورة الشاعر على سيف الدولة فيتهمه بالجور والظلم ،ولكن في ضعف واستخذاء :

ياأعدل الناس الا في معاملتي

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وهذا البيت ذكر في مناسبات شتى بعيدة عن مقاصد الشاعر ومناخه النفسي ،ولحن وغني وطبقت عليه المقاييس البلاغية ،وهو يمثل المطلع والبداية الحقيقية للقصيدة ، وما ابيات المديح الا قناع وتغطية ومهارة في التمهيد المهجوم الذي سيقوم به الشاعر في الابيات الاخرى ، وكان بمثابة تحفز يهيء له ان يتهم سيف الدولة بالرؤية الكاذبة :

أعيذهـا نظـرات منـــك صـادقـــة
أن تحســب الشـــحم فيمن شحمه ورم

ويشرح الصاحب بن عباد هذا البيت بقوله : « ان نظراتك صادقة فأعيذها ان تخدعك فتحسب الورم شحما ، وهذا المثل اراد به ان لايقيس من دونه بالمرتبة بمقياسه وان لايعامله كمعاملته ، فهو بالنسبة لغيره كالسليم والغير كالسقيم»(٥) .

ولا يلبث ان يوغل في التعريض بقوله :

وما انتفــاع اخـي الدينـا بنـاظـره
اذا اسـتوت عنـده الانوار والظلـم

وسيف الدولة هو المعني بهذا البيت يصفه الشاعر بانه ظالم ، عات ،مضلل، لايفرق بين الصديق والعدو والمزيف والحقيقي والجيد والرديء ولاينتفع بناظريه وادراكه ، فأي ثورة هذه التي جعلت الممدوح العظيم ، بعد ان ابدع الشاعر في تمجيده ، بصدق واخاء ومودة ، يقع في وهدة الغضب والنقمة . واقتطع الناس هذا البيت ورددوه على انه حكمة رائعة في حين انه اهانة واضحة اذا قرأناه كجزء لاينفصل عن اطار القصيدة العام ، ولم نقتطعه منها فينحسر عنه الاحساس الذي املى على الشاعر قوله ذاك ، وكم من المرات قـريء هذا البيت منفردا كحكمة خالصة . انه تعبير ادبي غير مباشر فيه عمومية الاحكام الا ان الشاعرقصد به شخصا معينا بذاته ، وهو كالبيت السابق ليس من الحكمة في شيء ،واننا اذا جردناه من القصيدة فقد كل رواء وحياة وحرارة ويكتفي العكبري في شرحه له :«وما ينتفع اخو الدنيا بناظره ... اذا استوت عنده الصحة والسقم والانوار والظلم ، والمعنى : يجب ان تميز بيني وبين غيري ممن لم يبلغ درجتي ، كما تميز بين النور والظلمة ، وهو منقول من قول

الحكيم ارسطوطاليس : اعتدال الامزجة وتساوي اركان الانسان تفرق بين الاشياء واضدادها »[٦] ، اما الصاحب بن عباد فيشرحه : « ما انتفاع الانسان بنظره اذا استوت عنده الانوار والظلم؟ ويريد انه يجب التمييز بينه وبين سواه كما يميز بين النور والظلام »[٧] .

ويقول المتنبي :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدم

أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

ويشرح العكبري البيت الثاني والثالث :«يريد ان شعره سار في آفاق البلاد واشتهر حتى تحقق عند الاعمى والاصم فكأن الاعمى رآه لتحققه عنده ،وكأن الاصم قد سمعه ،ويقول : أنام ساكن القلب ، متمكن النوم لا أعجب بشوارد ما أبدع ولا احفل بنوادر ما انظم»[٨] ، ويرى البرقوقي : «ان شعره سار في آفاق البلاد واشتهر حتى تحقق عند الاعمى والاصم أدبه فكأن الاعمى رآه لتحققه عنده ، وكأن الاصم قد سمعه ... ويقول : انا انام ملء جفوني عن شوارد الشعر لااحفل بها لاني ادركها متى شئت بسهولة...»[٩] .

ولكن الشاعر في هذين البيتين يقدم نفسه الى سيف الدولة ورهطه ممن حضروا المجلس ، كأنهم لايدركون من أمره شيئا رغم السنين التي قضاها في حلب ، بأنه خير من الناس جميعا ومن سيف الدولة واصحابه الذين لايريد ان يرقى بهم الى مستوى الاعمى والاصم في فهم شعره ، لانهم ، وقت انشاد القصيدة ، دون ذلك جهلا وحقدا ، وهذا هجاء مقذع اتخذ شكل الفخر تسترا كما اتخذت اهانات المتنبي لسيف الدولة في هذه القصيدة ، شكل الحكمة قناعا ، وقد فضل نفسه ، في البيت الاول ، على سيف الدولة وصحبه ايغالا في التحدي ، والابيات الاربعة عشر السابقة مقدمة وتوطئة لهذا البيت

الذي بلغ به الفخر اوجه اثارة لاعدائه وانعكاسا للاهانة التي لحقته منهم ، وهو لايستطيع طبقا للتقاليد السائدة ان يبدأ به القصيدة . ويثور الشاعر بعد ذلك ثورة عارمة ويهدد تهديدا واضحا :

وجاهـــل مـــده في جهلــه ضحكــي
حتـــى أتتـــه يــد فراســـة وفــم
اذا نظـرت نيـوب الليــث بـارزة
فــلا تظنــن ان الليــث يبتســـم

ولكن العكبري يشرح البيت الاول بقوله :«رب جاهل خدعه تركي له في جهله وضحكي منه حتى افترسته بعد زمان فأهلكته ...»[١٠] ،ويرى البرقوقي :«انه يغضي عن الجاهل ويحلم الى ان يجازيه ويعصف به»[١١] ، وواضح من هذا الشرح اعتماد البيت مستقلا عن القصيدة وصاحبها ،ولم يتساءل الشراح : من يكون هذا الجاهل ؟ ويستمر المتنبي في تهديده ويبال في شجاعته وان ليس بمقدور أحد التغلب عليه :

ومهجـــة مهجتـــي مـــن هم صاحبها
ادركتهـــا بجـــواد ظهـــره حـــرم
رجـــلاه في الركض رجـل واليدان يـد
وفعلـــه مـــا تريد الكـــف والقـــدم
ومرهف ســـرت بـين الجحفلين بـــه
حتـــى ضربـــت ومـــوج الموت يلتطم
فالخيـــل والليـــل والبيـــداء تعرفنـــي
والســـيف والرمح والقرطـاس والقلم
صحبت في الفلـوات الوحشـ منفـردا
حتى تعجـب منـي القـور والأكـــم

ثم يعاتب بمرارة ويأسف ويتهم سيف الدولة بانه لايحفظ ذمـة ولا يرعى عهدا :

يامن يعز علينا أن نفارقهم
وجداننا كل شيء بعدكم عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة
لو أن امركم من أمرنا أمم
ان كان سركم ماقال حاسدنا
فما لجرح اذا ارضاكم الم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة
ان المعارف في اهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم
ويكره الله ما تأتون والكرم

وتفضي الابيات الثلاثة الاولى ان الشاعر مازال وفيا لسيف الدولة وانه لايريد الفراق الا مكرها وان ذلك الفراق سيصيبه بحزن عميق يريه الحياة عدما والاشياء خاوية ، ولكنه سرعان مايعود الى صوته الاول فيقول :ان بينه وبين سيف الدولة معرفة ، لا يرعاها وان المعارف ذمم ولكن في أهل النهى والعقول ، فسيف الدولة ، اذن ليس منهم، وهذا هجاء خفي وليس حكمة او مثلا سائرا • ويتحدى الحساد والوشاة ان يجدوا فيه عيبا ثم يفخر بنفسه ويعتد بها كثيرا وهو في حضرة الامير امعانا في اغاظته واهانة مجلسه :

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي
أنا الثريا وذان الشيب والهرم
ليت الغمام الذي عندي صواعقه
يزيلهن الى من عنده الديم

ويهدد بان الندم سيحيق بسيف الدولة ورهطه اذا ما فارقهم الشاعر :

ارى النوى تقتضيني كل مرحلة
لاتستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميراً عن ميامننا
ليحدثن لمن ودعتهم ندم

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا

أن لاتفارقهم فالراحلون هم

ويعتبر الصاحب بن عباد البيت الاخير من الامثال ويشرحه :«اذا رحلت عن قوم وهم قادرون على اكرامك منعا لك من الرحيل ، فكأنهم هم المسببون فيه والذين اختاروا الفراق الذي لجأت اليه مضطرا مكرها»(١٢) ويرى الحاتمي ان المتنبي اخذ هذا البيت من قول ارسطو :«من لم يردك لنفسه ، فهو النائي عنك ، وان كنت قريبا منه ، ومن يردك لنفسك فأنت قريب منه ، وان تباعدت أنت عنه»(١٣) .

وبعد ان يقول الشاعر :

شر البلاد مكان لاصديق به

وشر مايكسب الانسان ما يصم

يصل الى قمة غليانه النفسي فيقرر انه في كل هذه السنين الطويلة كان يمارس اعمالا لا تتلاءم وشاعريته ومنزلته وانه اهان نفسه واهدر طاقاتها في سوق مدائح الملوك الذين لا قدرة لهم على التمييز بين الصالح والطالح :«وان هبات سيف الدولة وان كثرت على جلالتها وسعتها : لاتعادل تقصيره في حقه وايثاره لحساده »(١٤) ، وان ما حصل عليه الشاعر من جوائز تساوى فيه مع حاسديه ومناوئيه ، وكيف يجوز لسيف الدولة ان يستمع الى أناس لاقيمة لهم ،وعنده شاعر كالمتنبي الذي اضطر الى العتاب والتعريض بممدوحه لعله يذل الحساد ويمنع القطيعة والفراق :

وشر ما قنصته راحتي قنص

شهب البزاة سواء فيه والرخم

بأي لفظ تقول الشعر زعنفة

تجوز عندك لاعرب ولا عجم

هذا عتابك الا انه مقة

قد ضمن الدر الا انه كلم

فاين أبيات هذه القصيدة ، في دراساتنا المختلفة ،من اطارها العام وثورة صاحبها النفسية ؟ ان هواة جمع النصائح والامثال والحكم قد جزأوها وحفظوا بعض ابياتها ليزخرفوا بها احاديثهم اليومية :«وما من كاتب او خطيب او متكلم او مناظر او مدرس الا وله من حكم المتنبي مدد اي مدد»[١٥] ، ولم تنبه محاولة جدية لاغتيال الشاعر بعد القاء هذه القصيدة ، الى معرفة الاسباب الكامنة وراء ذلك ، والى الاهانات التي تضمنتها ابياتها ، فالمتنبي لم يكن بوسعه ان ينهي لمخاطبه مباشرة انه لا يميز بين الغث والسمين ولا يفرق بين الجيد والرديء لذا لجأ الى ما اعتبرناه نحن من الحكم خطأ فقال :

وما انتفاع اخي الدنيا بناظره
اذا استوت عنده الانوار والظلم

واذا جردنا هذا البيت من القصيدة وظروف نظمها واحاسيس صاحبها اتخذ شكل حكمة ، في حين انه اهانة وهجاء واضح ، وقد تتبع طريقة الشاعر ذاتها في حياتنا اليومية ، اذا اردنا ان نعبر عن معنى نخشى ان يجر عواقب ، فنغلفه باطار حكمي معين يسوه ذلك المعنى بشكل من الاشكال ، ولكن هذا الامر لم يكن بمقدور الشراح استيعابه ، لتجزئة حاصلة في اذهانهم ومواقفهم من الشعر الذي يفهسونه بيتا بيتا ، والمتنبي لم يكن في هذه القصيدة صائغ حكم اراد ان يرسل منها جمهرة ليستعملها الناس عند الحاجة ولينتفعوا بها فكأنهم يقرأون انفسهم فيما قاله الشعراء ويفهمون من المعاني ما يتفق وهواهم ولا اظن ان المتنبي كان ينظم الافكار التجريدية الدائرة في أذهان الناس حكما: «وعني الشاعر العباسي في مدحته بالحكم ... حتى كان المتنبي فبلغ بها الغاية التي ليس وراءها غاية ، وكأنه صاغ للناس كل مايمكن ان يجري في خواطرهم ...ولا يكاد يوجد اديب عربي منذ عصره الاوهو يحفظ من حكمه ويستشهد بها في معارض كتاباته واحاديثه»[١٦] ،فلم يكن الشعراء العباسيون جميعا من المداحين ، ولم تتضمن قصائد المديح دائما حكما ، واعتبر المتنبي ،رغم هذا وذاك ، صاحب أمثال جمعها له الصاحب بن عباد واعتبرها «فصوص» شعره فهي تمثل «لب اللب»[١٧] ،والرسالة الحاتمية لم تخدم مجد المتنبي ، ولكنها شجعت على تجزئة تراثه الشعري وبعثرته : «ثم ان هذه الرسالة ـ مهما يكن قصد مؤلفها ـ قد خدمت مجد المتنبي اذ لفتت النظر الى ما في شعره

من آراء فلسفية ، وهذا ما رأته الاجيال المتعاقبة ميزة خاصة للمتنبي ،ومن المعلوم ان العقلية السامية بوجه عام تميل الى الحكم المركزة»[١٨] ،يقول الحاتمي في رسالته :«ووجدنا ابا الطيب ، احمد بن الحسين ، المتنبي ، قد اتى في شعره باغراض فلسفية ، ومعان منطقية ، فان كان ذلك منه عن فحص ونظر وبحث ، فقد اغرق في درس العلوم ، وان يك ذلك منه على سبيل الاتفاق ، فقد زاد على الفلاسفة بالايجاز والبلاغة والالفاظ الغريبة ، وهو في الحالتين على غاية من الفضل وسبيل نهاية من النبل »[١٩] .

ويقول الزمخشري : «ولا كالمتنبي بين الشعراء من كانت اقواله مضرب المثل ، لماحوته من الفصاحة وحسن البيان ، ولهذا اخترنا لك الابيات التي جمعها الوزير اسماعيل بن عباد لسلطانه فخر الدولة بن بويه ، لقيمتهاالادبية ولانها حلية تزين بها رسالاتك ، ومجالسك ، وتعرض لك في كل مناسبة من المناسبات وقد قدمنا لكل بيت شرحا وجيزا ...والله الموفق»[٢٠] ، ويطري الثعالبي قصيدة «واحر قلباه» بان اكثر ابياتها مستقلة بذاتها !! وانها بارعة لولا اساءة للادب فيها :«وهي على براعتها واستقلال اكثر ابياتها بانفسها تكاد تدخل في باب اساءة الادب بالادب »[٢١] .

«ان امثال المتنبي لو اقتطعت من ديوانه لكانت في ذاتها ديوانا يعجز اي شاعر فحل ان يأتي بمثله» [٢٢] ،«اما شعره الحكمي فليس له مكان خاص في ديوانه بل انه يتسرب فيهمن اوله الى آخره .ولذلكيجب على الناقد ان يؤلف من هذه المتفرقات المتشتتة مجموعة مرتبطة الاجزاء جديرة بان تمنح الشاعر لقب الحكيم . اما حكمته فعملية مجالها الاخلاق وتصوير حالات النفس» [٢٣] ،«واذا خلد المتنبي ، فان الذي يخلده ، انما هي تلك الحكم الرائعة التي استفاضت في شعره ، فاستشهد الناس بها ، بحسب مايقتضيه مقام الاستشهاد ، فكأن ابا الطيب لسان حال البشر بأجمعهم ،فقد يقذف المتنبي فيبيتاو فيبيتين مذهبا فلسفياوعلميا ،يشغلبه المفكرونكل حياتهم»[٢٤] ويرى ماسنيون :«انه يوجد هنا وهناك عند المتنبي ، حكم ذات ايجاز مؤثر ، ومعرفة بالنفس قوية»[٢٥] .

اما ذلك الحوار الذي تذكره الكتب القديمة من ان ابا فراس كان حاضرا مجلس سيف الدولة واخذ يعترض على القصيدة ويرد أكثر عيونها الى أصول

جاهلية واسلامية ويتهم المتنبي بالسرقة ، والشاعر لايأبه به ويستمر في القاء قصيدته ، فتكثر دعاويه فيها فيضربه سيف الدولة بالدواة ثم يسترضيه ،فأمر موضوع مختلق قام به احد خصوم المتنبي ، وقد ذهب الى هذا الرأي قسم من النقاد ومؤرخي الادب [٢٦] •

ويقول د • محمد مهدي البصير :«على انه من المهم ان نعرف السبب الذي يدفع المتنبي الى تسجيل خطراته النفسية في كثير من قصائده ومقطوعاته، أهو الرغبة في تقرير مذهب فلسفي ام هو الرغبة في تأييد وجهة نظر يقتضيها مديح ممدوح او الترفيه عن خاطر صديق مكدود او التعبير عن عاطفة مكبوتة وشعور مكظوم ؟ انك اذا رجعت الى ديوانه وتدبرت حكمه وامثاله وتأملتها طويلا رأيت ان السبب الثاني هو الذي يمليها عليه »[٢٧] •

ويرى محمود محمد شاكر :«ان لكل حكمة في شعره اصلا تاريخيا في قلب هذا الشاعر الذي لم يكن قلبه ينسى شيئا أو يفلته ، وكأني به — وهو يقول البيت السائر والمثل الشرود — كانت تتراءى تحت عينيه ، ويدوي في مسمعه ، كل مامر به مما أثر فيه ، فيقول البيت وفي كل لفظة منه سبب ممدود الى ذكرى يذكرها او فكرة يتخيلها»[٢٨] •

اننا لانستطيع ان نتفهم الشعر جيدا اذا قرأنا القصائد مجزأة ومقطعة وبعثرنا ابياتها حكما متفرقة وامثلة بلاغية او نحوية او عروضية ، لقد ردد فريق من الناس ابياتا في بعض المناسبات ، دون ان يفهموها ،لا لانهم اعجبوا بها وعاشوا تجربتها وانما ليظهروا براعتهم اللغوية والادبية ويرصعوا احاديثهم اليومية بها • ان البيت الذي تقرأه بعيدا عن القصيدة هو جزء مقتطع منها جردناه من اصله ومن جو القصيدة العام ، وقد ضاع شعر وتبدد ابداع في خضم هائل من التجزئة الدائمة ، وقد عرف عن بعض الشعراء القدامى انهم لم يرتضوا ان يقتطعوا أو يسقطوا أي بيت من قصائدهم ، وقيل عن ابي تمام انه :«كان يأتي بالقصيدة البديعة وفيها البيت الرذل فيتمسك به ولا يرى اسقاطه»[٢٩] •

وقد شوه صفي الدين الحلي أبيات قصيدة «واحر قلباه» وأبياتا أخرى من لامية الطغرائي بتشطير يضم صدرا من هذه وعجزا من تلك ، فأهان الشاعرين والتجربتين واضر بالقصيدتين وافصح عن عبث لاداعي له • وبالرغم

من ذلك قيل : انه كان بارعا في عمله هذا[٣٠] ، فأي فهم للشعر ، عند صفي الدين او غيره ، يمكن ان يبرر هذا التشويه :

قـل للخلي الذي قد نام عـن سـهري
ومـن بجسمي وحالي عنـده سـقم
تنـام عينـي وعـين النجـم سـاهرة
واحـر قلبـاه ممـن قلبـه شـبم
فالحـب حيث العـدى والاسد رابضـة
فليـت أنـا بقـدر الحـب نقتسـم
حـب السلامـة يثني هـم صاحبـه
اذا اسـتوت عنـده الانوار والظلـم
أهبـت بالحـظ لو ناديـت مستمعـا
وأسـمعت كلماتـي مـن بـه صمم
وحسـن ظنـك بالايـام معجـزة
ان تحسـب الشحـم فيمـن شحمه ورم

ان اقتطاع جزء من قصيدة يميت فيه حيويته ويفصله عـن جذوره كاقتطاع اي عضو من كائن حي ، وحتى القصائد التي تفتقد وحدة الموضوع يجب ان تقرأ ككل وان نفكر بأحاسيس قائلها وتجربته ، ولابد مـن علاقة تربط بين الموضوعات التي تتناولها القصيدة ، وهذه العلاقة هي الشـاعر نفسـه ، وعلينا الا تتناساه ،ومن حقه ان نفهمه ،ولكل قصيدة اطار ينتظم ابياتها ، مهما تعددت اغراضها ، يقول طه حسين : «ومن اخص العيوب التي يؤخذ بها النقاد الذين نقدوا ابا تمام والبحتري والمتنبي انكم لا تجدون احدا من هؤلاء النقاد ينقد القصيدة من حيث هي قصيدة ، فهم اذا قرأوا اجمل قصائد ابي تمام والبحتري والمتنبي لا ينظرون اليها جملة ، كيف استقامت الفاظها ومعانيها واسلوبها ، وانما يقفون عند البيت والبيتين ، أأجاد الشاعر في هذا التشبيه ام لم يجد ؟ أوفق في هذا التعبير ام لم يوفق ؟ وما هكـذا تتصور المثل الاعلى للنقد الادبي»[٣١] .

ونصبح بعيدين عن الابداع في أدبنا ، بتجزئتنا لنصوصه ، وعجالتنا في فهمه ، ولابد لنا ان تتمثل تجربة الشعراء ، وان نستوعبها كاملة ، وان ندركها بأناة وصبر ، والا نضفي عليها اشياء غريبة من ذواتنا فنحولها عن مسارها .

---

(١) نشر هذا البحث باختصار في مجلة الجامعة المستنصرية ، العدد ٢ ، بغداد ١٩٧١ ، وجرى عليه تغيير وتنقيح ، ويعاد نشره هنا لاهميته بالنسبة الى الشاعر وتراثه الشعري وفهمنا اياه .

(٢) ابن رشيق القيرواني ، العمدة ، ج١ ، القاهرة ١٩٠٧ ، ص١٧٥ .

(٣) ينظر : بحث المؤلف عن وحدة الموضوع في مجلة المورد ، العدد الثاني ، المجلد الرابع ، بغداد ١٩٧٥ ، ص٢١ ومابعدها .

(٤) العكبري ٣–٣٦٢ .ويرى طه حسين : ان القدماء والمحدثين قد اكثروا من الحديث عن هذه القصيدة وان من يدرسها لن يأتي بجديد ،ينظر : مع المتنبي ، القاهرة ١٩٦٠. ، ص٢٤٢ .

(٥) امثال المتنبي ، جمعها الوزير اسماعيل بن عباد المشهور بالصاحب لسلطانه فخر الدولة بن بويه ، شرحها وضبط الفاظها وعلق عليها زهدي يكن ، صيدا بلا تاريخ ، ص١٥٠ .

(٦) العكبري ٣ – ٣٦٧ .

(٧) امثال المتنبي ١٥١ .

(٨) العكبري ٣–٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٩) شرح ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، ج٤ ، ط٢ القاهرة ١٩٣٨ ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(١٠) العكبري ٣–٣٦٨ .

(١١) البرقوقي ٤–١١٠ .

(١٢) امثال المتنبي ١٥١ .

(١٣) الحاتمي ،الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام ارسطو في الحكمة ، تحقيق فؤاد افرام البستاني ،بيروت ١٩٣١ ، ص٣٠ .

(١٤) العكبري ٣–٣٧٣ .

(١٥) احمد الاسكندري ، الوسيط في الادب العربي وتاريخه ، ط ١٦ ، القاهرة بلا تاريخ ،ص ٢٧٤ .

(١٦) د. شوقي ضيف ، المجلة ، العدد ٩٧ ، القاهرة ١٩٦٥ ،ص٢٦ .

(١٧) امثال المتنبي ٤ .

(١٨) د. محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، القاهرة ١٩٤٨ ،ص٢٠٨ .
(١٩) الرسالة الحاتمية ٢٣ .
(٢٠) امثال المتنبي ٥ .
(٢١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ،تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد ،ط٢ ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج١ ، ص٢٠٨ .
(٢٢) محمد عبد الفتاح ابراهيم ، المتنبي ، القاهرة ١٩٣٥ ،ص٦٤ .
(٢٣) محمد كمال حلمي ،ابو الطيب المتنبي ، القاهرة ١٩٢١ ، ص٢ .
(٢٤) الراي لشفيق جبري ، ينظر : بلا شير ، ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين ، ترجمة احمد احمد بدوي ، القاهرة بلا تاريخ ، ص١٦٨ .
(٢٥)المصدر السابق ١٠٣ .
(٢٦) ينظر :محمد مهدي البصير ، في الادب العباسي ، بغداد ١٩٤٩ ، ص ٣٤٤ . ومندور ١٦٥ ، ١٦٦ . ويقول طه حسين :«وليس من شك في ان هذه القصة قد الفت تأليفا في وقت متأخر ، ولكنها على كل حال تعطي ظلا لما كان في مجلس سيف الدولة حين انشدت هذه القصيدة» ،مع المتنبي ٢٦٣ .
(٢٧) البصير ٣٨٤ .
(٢٨) شاكر ٧٦ .
(٢٩) ابو الفرج الاصبهاني، الاغاني، كتاب التحرير ،القاهرة ١٩٦٣،ص١٧٣٨.
(٣٠) ديوان صفي‌الدين الحلي ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٢ ، ص٥٤ .
(٣١) طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، القاهرة ١٩٣٦ ،ص١٧٨ .

رثاء الأنسان

ليس المتنبي حكيما في أبيات مفردة او أنصاف ابيات اقتطعها الشراح من قصائد متكاملة بمضمونها ، ووضعوا لهاقوائم ، واعجبوا بما اكتشفوا وجزأوا ، وحفظها الناس ورددوها كما يشاؤون ، وفق رغباتهم الشخصية . وافقدوها رواءها وحيويتها ومعناها ، ولكن يمكن ان يصبح المتنبي حكيما في موقفه من الزمن[1] ،وصراعه مع الدهر ورثائه للانسان ! ان كنا نؤمن بـان الشعر يصنع الحكمة وان الشاعر البارع يجب ان يكون حكيما ، والا نرى في الحكمة ، بمنطقها العقلي البارد المجرد ، ومعادلاتها المتزنة ، تضادا مـع شاعريةتضرب في اعمق احاسيس الانسان بعيدا عن الامثال والنصائح والحقائق الثابتة التي تتحول الى عزاء رخيص لمن ابتعد عن نوازع الرفعة ، وأحـس بأسف على نفسـه لانانية فيه تود ان تستحوذ على الدنيا ، ولم يستهوه شرف المحاولة ، وفيض الامتزاج بين الانسان والكون ، ولم يعان من لغز الحياة المحير ولم يضنه نقصه عن بلوغ كمال المعرفة فينطلع الى افاق جديدة وريادةدائمة .

والمتنبي ، ان كان حكيما ، نفتقد حكمته ، بمفهومها المتداول الشائع في ردود افعاله وافكاره ومواقفه واحداث حياته ، ولكنه شاعر ومفكر وانسان له خطرات وتأملات ذهنية وفلسفية ، لانبحث عنها في انصاف ابيات ،ولكن في شعره جميعا ، ونجد جزءا كبيرا منها في رثائه للانسان ، او رثائه لنفســه . دون ان يحظى هذا الموضوع باهتمام كبير من شعراء سابقين .

يمزج ابو الطيب رثاءه باحساس صادق وبموقف ازاء الموت تخالطه الدهشة والحيرة ، فيرثي في مراثيه نفسه والآخرين ، ويأسى للمصير الفاجع الذي يتسرب الى حياتنا ببطء وهدوء ، يوما بعد يوم ، يحرمنا من أحبائنا ، ثم لا يلبث ان يطوينا في غياهبه ، ولكنه يدرك أهمية توارث الاجيال، وتبادل المواقع بين البشر ،وتجدد الحياة بالموت ،ويرى ،بشاعرية نافذة ،ان الاغتصاب قائم بين قادم وراحل ، والنضال خفي واقع بين جديد وقديم ، يستلب الانسان

بقاءه من اسلافه ، ولا معنى للحياة بلا موت ، ولا للشجاعة والكرم والصبر ولكن ان يأتي الموت الانسان بعد سنين طويلة(٢) :

وقــد فارق الناســ الاحبـــة قبلنـــا
وأعيـا دواء المـــوت كـــل طبيـــب

ســبقنا الـــى الدنيـــا فلــو عاش اهلهـــا
منعنـــا بهـــا مـــن جيئـــة وذهـــوب

تملكهـــا الآتـــي تملـــك ســـالــــب
وفارقهـــا الماضـــي فـــراق ســـليب

ولا فضــــل فيهـــا للشـــجاعة والنـــدى
وصـــبر الفتــــى لولا لقـــاء شـــعوب

وأوفى حيـــاة الغابـــرين لصـــاحـــب
حيـــاة امـــرىء خانتـــه بعـــد مشـــيب

وبما ان الموت نهاية محتمة ، يعود الشاعر فيرى ان طول العمر وقصره سيان(٣) :

كثـــير حيـــاة المـــرء مثـــل قليلهـــــا
يـــزول وبـــاقي عمره مثـــــل ذاهـــب

وتلك هـــي سنة الحياة(٤) :

على ذا مضـــى الناس اجتمـــاع وفـــرقة
وميـــت ومولـــود وقـــــال ووامـــــق

فيدعو الى انتهاب اللذات وان يقتنص الانسان مايستطيع من هذه الدنيا فهي وحدها مايملك ، وكل شيء دونها زائف(٥) :

دع النفـــس تأخـــذ وســـعها قبل بينهـــا
فمفتـــرق جـــاران دارهمـــا العمـــــر

ويرى الموت ضربا من قتل واغتيال(٦) :

اذا ماتأملـــت الزمـــان وصرفـــــه
تيقنـــت ان الموت ضـــرب مـــن القتـــل

والغدر من صفاتــه[٧] :

غدرت يامــوت كــم أفنيــت من عــدد

بمن اصبت وكم اسكــت مــن لجــب

وهو سارق ولص اوجدته وحمته نواميس هذا الكون وقوانينه[٨] :

ومــا المــوت الاســارق دق شخصــه

يصول بلا كف ويسعــى بــلا رجــل

وتسترد هذه الدنيا ما تهب دوما ، وليتها بخلت بما وهبت ،ويدعو الى العدم مادام الفناء نهايتها ، ورغم غدرها وخياناتها تظل معشوقة ، دون ان تحفظ عهدا او تتم وصلا ، والانسان لايمل هذه الحياة ،والخلود فيهـا محال[٩] :

ولذيذ الحيــاة أنفس في النفــس وأشهــى مــن أن يمــل وأحلــى

ابــــدا تســـترد مــاتهب الـدنيا فياليت جــودهــا كــان بخــلا

وهي معشــوقة عــلى الغــدر لاتحفــظ عهــدا ولا تتمــم وصــلا

ويدعو الانسان ان يعلن الاضراب الجنسي في حياة نهايتها الموت فتنجو الاجيال القادمة من المصير المؤلم ببقائها في عالم الغيب ، لاحياة ولاممات ولا سعادة ولا شقاء[١٠] :

وما الدهــر أهــل أن تؤمــل عنــــده

حيــاة وان يشتــاق فيه الى النســـل

وغرور الانسان حمق وجهل ، مادام الموت يجثم على صدره ، ويبكي نهايته ، مع معرفته بها وادراكه لها ، ويضع الشاعر أمامنا مصير الاكاسرة الذين كنزوا الكنوز ، واذا بكل ذلك هباء وعبث ، حواهم قبر واحال رفاتهم الى تراب تذروه الرياح ، بعد ان ضاق الفضاء بجيوشهم وجبروتهم فغفلوا عن هذه الدنيــا وغدرها ومصيرهم فيها ، ثم سكتوا بعد ان ملأوا الكــون صخبــا وضجيجا[١١] :

أبني أبينا نحـــن أهـــل منـــازل

أبــداً غــراب البــين فيهــا ينعـــق

نبكـي علـى الدنيـا وما مـن معشـر
جمعتهـم الدنيـا فلـم يتفـرقـوا

ايـن الاكـاسرة الجبـابـرة الالـى
كنـزوا الكنـوز فمـا بقين ومابقـوا

مـن كـل مـن ضاق الفضاء بجيشـه
حتـى ثـوى فحـواه لحـد ضيـق

خرس اذا نودوا كـأن لم يعلمـوا
أن الكـلام لهـم حـلال مطلـق

والمـوت آت والنفـوس نفـائـس
والمستغر بمـا لديـه الأحمـق

وفي عالم يزول فيه الجبابرة ، وتمحي آلاف الجموع ، وتبقى فيه الآثار شاهدة على اصحابها ، وما تلبث ان تندثر في دورات الانحلال والعدم ،لا تصفو الحياة الا لجاهل او غافل او ميت حي ، ليس لأبعاد الزمن عنده من ماض وحاضر وآت معنى ، ارتضى لانسانيته ان تكون سائبة ، فتمنى البقاء وتطلع الى المحال وعاش في الحلم والوهم فزاد طمعا وعماية(١٣) :

تصفـو الحيـاة لجـاهل او غـافـل
عمـا مضـى فيهـا وما يتوقـع

ولمـن يغـالط في الحقائـق نفسـه
ويسـومها طلـب المحـال فتطمـع

أيـن الـذي الهـرمـان مـن بنيانـه
ماقومـه مايومـه ماالمصـرع

تتخلـف الآثـار عـن اصحـابهـا
حينـا ويدركهـا الفنـاء فتتبـع

وهناك امثلة تدور بين الناس لحياة كالموت ، وموت كالحياة[١٣] :

في النـــاس امثلـــة تـــدور حياتهـــا
كمماتهـــا ومماتهـــا كحياتهـــا

وتستحيل الحياة الى عملية دفن دائبة يتبادلها البشر فيما بينهم ،لاتوقف فيها، وكأن الاجيال مواكب يشيع الواحد منها الآخر ، والدنيا مأتم دائم[١٤]:

يدفـــن بعضنـــا بعضـاً وتمشـــي
اواخـرنـا عـــلى هـام الاوالـــى

وحين يألف الانسان الحياة يجد الموت مرا شديدا ،وما فائدة الخوف من الموت الذي يميت معه ايضا نوازع الخشية والفزع منه[١٥] :

الـف هـذا الهـواء أوقـــع في الأنـ
ـفس أن الحـــمام مـر المـــذاق
والأســـى قبـل فـرقـــة الـروح عجز
والأســــى لايكـون بعـد الفــراق

ويستغرق رثاء الانسان من الشاعر ابياتا وقصائد ويرى ان الناس بنو الموتى ،يجزعون من أقوى وشائج مااقترن بوجودهم ،ويبخلون بما لايملكون ولابد من ضجعة ابدية ، تنسي ما كان وما يكون ،يتساوى بها الجاهل والعاقل والقوي والضعيف والعظيم والحقير ،وتغدو بديهيات هذه الحياة ضربا من فلسفة وحكمة[١٦] :

لابد للانســان مــن ضجعــة	لاتقلـب المضجـع عـن جنبـه
ينســى بها ماكـــان من عجبـه	ومــاأذاق المــوت من كــربــه
نحــن بنو الموتى فمــا بالنــا	نعاف ما لابد مــن شــربـــه
تبخــل ايدينـــا بأرواحنـــا	علــى زمان هــي مــن كسبـه
فهــذه الارواح مــن جــوه	وهــذه الاجســام مــن تربـه
لــو فكــر العاشق في منتهــى	حســن الذي يسبيه لم يسبـه
يموت راعي الضأن في جهلـه	موتـة جالينوس في طبـــه
وربـمـــا زاد على عمـــره	وزاد في الامــن عـلى سربـه

والامثلة كثيرة ولانستطيع ان نستغرق بها صفحات وصفحات .وشعراء سابقون لم يفتهم ما جال في ذهن المتنبي من خواطر ،كزهير وطرفة وبعض العباسيين ، ولكن المتنبي استطاع ان يقدم افكاره بأطر خاصة ، وبهذا يمكن ان نسميه حكيما ، ان أصررنا على الاصطلاح ، وبما ان الشعر فكر واحساس وموهبة ورؤيا ، فلا بد ان يتناول شعراء موضوعات تهم الانسان ووجوده ومصيره ، ولانرى في ذلك عجبا ، فان ابتعدوا عن انسانيتهم فيإشعارهم اثاروا الدهشة . ويحمل الشعراء الناس على التأمل في قضايا هذا الكون ،ويتحفهم الفلاسفة بأفكارهم ، ويبدع العلماء تجارب ، وتتضافر جهود البشر للكشف عن المجهول ، فيضرب الانسان في متاهة هذا الكون ، ويتقدم خطواتاخرى في عوالمه اللامتناهية . فهل كان المتنبي حكيما في انصاف ابياته ؟ام انه مفكر ومبدع وفنان في شعره جميعا ، اضناه حزن العالم ، وكان للموت في مراثيه جانبان ، أولهما يفصح عن اسى حقيقي لفقيد ترك فينفسه اثرا لا يمحى وحسرة ولوعة ، فاليه والى ذلك الحزن ينظم شعرا ، كما نجد في رثائه لخولة ولجدته وحين تفرض الظروف عليه مراثي لمناسبات طارئة ، يحتمها عزاء رسمي ومشاركة وجدانية لامفر منها ، نجده يهرب من رثاء فرد لاقيمة لموته عنده الى رثاء الانسان ، كما نرى في قصيدة يماك التركي وأم واخت سيف الدولة الصغرى ، وحين تعوزه التجربة الخاصة والاحساس الحقيقي ، لايفتقد التجربة العامة الشاملة التي تلف بابعادها البشرية جمعاء .

---

(١) ينظر للمؤلف : الشعر والزمن ، منشورات وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧٥، وفيه فصل خاص عن المتنبي وموقفه من الزمن وتأملاته الفكرية ، ص ٣٩ ومابعدها .

(٢)-(١٦) الديوان ، ج١ ، ص ٤٩ ، ١٥٠ ج٢ ، ص٣٤٢ ، ١٤٨ . ج٣ ، ص٥١. ج١ ،ص ٨٧ .ج٣ ، ص ٤٨ ، ١٢٩ ، ٥٢ . ج٢ ، ص ٣٣٤ ، ٢٦٩ .ج١، ٢٣٥ . ج٣ ، ص ١٨ . ج٢ ، ص ٣٦٩ . ج١ ، ص٢١١ .

صفات السيف
والنزعة الحربية في شعر المتنبي

احتفل المتنبي ، في شعره وحياته ، بالسيف كثيرا ، وكانت له مكانة غالية وسطوة وفعل ، وصفات واجواء • يكاد ينطق ، يحزن ويفرح ، يشجع ويخاف لانخطىء صليله وبريقه ورهافته • يظهر في القصائد مع الورد والحبيبة والكأس • يصاحب الشاعر كصديق وفي ، في حله وترحاله ، قبل ان تكون له صولة وجولة في الحروب والغزوات ، ويحيله رمزا للرفعة ، يهديه في دروب المجد ، ويحبه ، ويحنو عليه ، يقبله ، يمسحه، بحنان بالغ ماحظيت به امرأة وكأنه ولد مع الشاعر وخبر الحياة بتجاربه ، ولم يفارق جنبه ولم يغادر مضجعه ، استقطب كل تطلعاته ، واصبح بؤرة طموحه اللامتناهي ، وهبط في الحلم والواقع على رقاب الاعداء والمناوئين • ولا أظن ان السيف نال من شاعر عربي او غير عربي مابوأه المتنبي من منزلة ، فقد تردد مئات المرات في قصائده ، وصارت له طقوس واحوال خاصة • ومما زاد السيف مكانة في شعره انه لقب لاكبر ممدوحيه شأنا ، واكثرهم تأثيرا وفاعلية في شعره وحياته ومحارب شجاع ، حفظ له التاريخ مواقف وجولات في عالم البطولة :«وكان قد جمع ما تراكم عليه من عجاج الحرب فصنع منه لبنة واوصى ان توضع تحت رأسه في قبره»[1] ،وقامت مقارنة بين سيف الدولة كشخص وبين السيف كسلاح ، واوغل الشاعر في ذلك ووجد مجالا يرضي رغبة القتال عنده ونوازع التفوق والقوة[2] :

فلا تعجبا ان السيوف كثيرة

ولكن سيف الدولة اليوم واحد

له من كريم الطبع في الحرب منتضى

ومن عادة الاحسان والصفح غامد

ولاتنحصر دولة السيف عند المتنبي الا اذا تمت المقارنة بينه وبين سيف الدولة[٣] ، وقد يمتزج الاثنان فلا تكاد تفرق بينهما[٤] :

همام اذا مافارق الغمد سيفه

وعاينته لم تدر ايهما النصل

واذا ما سماه تكاد السيوف تتبسم في أغمادها تيها وزهوا[٥] :

اذا نحن سميناك خلنا سيوفنا

من التيه في أغمادها تتبسم

وحين يبتعد السيف عن سميه الممدوح ، يستعيد المكانة السامقة عند الشاعر الذي يعيد سيرة عنترة فيحيل اليه امرأة : «سلى عن سيرتي فرسى وسيفي »[٦]، ويصف حبيبة رائعة الجمالحلت عنقها بسيف من الصد اذا هم بالضرب اتقاه الشاعر بدرع من التجلد والصبر [٧] :

وشادن روح من يهواه في يده

سيف الصدود على أعلى مقلده

ما اهتز منه على عضو ليبتره

الا اتقاه بترس من تجلده

ويبدأ قصيدة مديح بأربعة عشر بيتا في وصف سيفه الذي يتمنى ان تصبح عينه غمدا له[٨] :

واليماني الذي لو اسطعت كانت

مقلتي غمده من الاعزاز

ويعجب بسدوح ، فقد السيوف المجردة من أغمادها أشد عليه من فقد أحبته[٩] :

وأمر من فقد الأحبة عنده

فقد السيوف الفاقدات الأجفنا

ويشبه نفسه بالسيف ويطلب من أحد ممدوحيه ان يبلوه ليجربه ويصطنعه[١٠] ،والشاعر يمثل جزءا يتكامل مع فرسه وسيفه بمزيج لاانفصام بعده :«وذرني واياه وطرفي وذابلي ، نكن واحدا ...»[١١] ،وتتر دولة الاقلام باندحارها وينتصر السيف[١٢] :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي

المجد للسيف ليس المجد للقلم

فيتمنى ان يمتد به العمر لتصبح الحرب أمه والسيف أباه والرمح أخاه لايخشى للموت جولة اذا ما تحققت هذه الاماني[١٣] :

وان عمرت جعلت الحرب والدة

والسمهري أخا والمشرفي أبا

فلا نعجب حين نراه يقبل السيف كأول عمل يقوم به بعد ان يخلص من مصر وكافور ويجتاز المهامه والقفار وخطر اللحاق به وقتله يطارده في كل مكان[١٤] :

وردنا الرهيمة في جوزه وباقيه اكثر مما مضى
فلما أنخنا ركزنا الرماح فوق مكارمنا والعلى
وثبنا نقبل اسيافنا ونمسحها من دماء العدا

والامثلة كثيرة . وتكاد لاتخلو قصيدة من سيف ، وحتى في موضع الرثاء ، يتذكر الشاعر ان الناس يعدون ويهيئون الاسلحة المتنوعة فيغتالهم الموت بلا قتال[١٥]، وصفات السيف متنوعة، وله كالبشر آجال، وآباء وأجداد من المعادن التي بامتزاجها يتكون الحديد ، وله ايضا حسب ونسب ،ولذبابه طعم ، ينقم حين يرى الاعداء قلة ،ويجوع ويأكل الهام والرقاب ، وحين يقطع الرؤوس ويصل الى العظام يصدح بالغناء ، ويضاحكه نور الشمس ، ويحمد ويشكر اليد التي تحمله ،ويفخر على الرماح ويشتمها ويعيرها انها تطعن من بعيد وتدخل السيوف مع المنايا في رهان فتسبق وتنتصر ، وقد يمسها السأم من طول الضرب ...الخ[١٦] .

ولا يعدم الغمد مكانة في شعره ، يبكي على النصل حين يجرده الفارس لانه يتسربل بالدم ويغمد في الرقاب[١٧] :

تبكي على الانصل الغمود اذا أنذرها أنه يجردها
لعلمها أنها تصير دما وانه في الرقاب يغمدها

وتكاد الروح العسكرية تطغى ، في حياة المتنبي وشعره ، والنزعة الحربية تسود ، فالعصر عصر بطولات ، لاكرامة فيه للضعيف ، والحروب والغزوات تتوالى يوما بعد يوم ، والغلبة للقوي[١٨] :

عش عزيزا أومت وأنت كريم
بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوس الرماح أذهب للغيـ
ـظ وأشفى لغل صدر الحقود

ويولد المتنبي ، وقعقعة الاعنة وصهيل الخيول وغبار الوقائع وصليل السيوف يصدع الآذان ويملأ الافاق ، والجيوش تتحرك في كل مكان ، ولا مجد الا للمقاتلين ، ومعدات الحرب تهيء للناس اسباب المنعة والجاه والغنى والسطوة والحكم ، ولا قانون يحمي الفرد سوى السيف ، والجبن صفة مرذولة بين الناس ، لايلقى صاحبها غير الهوان والاحتقار ، وتولد مع المتنبي آماله الكبار : العز السامق والقوة والجبروت والسلطة والحكم ، ويدرك ان الشعر وحده لايهيء له ذلك ، ويتحول الى داعية حرب حقيقي وثائر وسجين[١٩] ، ويخوض المعارك مع سيف الدولة ، ولايثبت في احدى الغزوات الا ستة ،منهم الامير والشاعر[٢٠] ، وتثير اشعاره حماس الجند واقدامهم[٢١] ، ويقطع الفيافي والقفار ، دون ان يخشى الوحوش وقطاع الطرق ،ويحمل معه طموحه الى كل مكان ،ويأمل ويرقب وينتظر ، ويقترن نزوعه الى الحكم بالسيف ويتخذه منارا لآماله وجوهرا لنوازعه ويرعاه في شعره ، ويملأ صوت الحرب عليه حياته ، ولايفارقه حتى في المواقف التي تنحسر فيها طقوس القتال . ولا يخلو اكثر قصائده من سيف ورمح ، وتلك الروح العسكرية الآسرة التي صاحبته في اطوار حياته المختلفة ،ولم تفارقه

ابدا ، فهو يتميز بذلك كما لم يفعل الشعراء الفرسان ، حتى جاء في المثل السائر :«أنه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من نصالها واشجع من ابطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام افعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا»[٢٢] ،وتمتزج نزعته الحربية بالاوصاف الغزلية : «ومن بدائع ابي الطيب المتنبي استعماله الفاظ الغزل والنسيب في اوصاف الحرب والجد ، وهو ايضا مما لم يسبق اليه وتفرد به فأظهر الحذق»[٢٣]، فالنظرات تجرح فؤاده بطعنات واسعة تنفذ من الدرع الذي تتكسر دونه الرماح[٢٤] :

مثلت عينك في حشاي جراحة

فتشابها كلتاهما نجلاء

نفذت علي السابري وربما

تندق فيه الصعدة السمراء

والناس تعشق وتحب ، لكن الشاعر لايهوى سوى ضرب الاعادي ولايشفى قلبه الا بجولة فيهم يكثر بعدها القتلى والجرحى[٢٥] :

ضروب الناس عشاق ضروبا

فأعذرهم أشفهم حبيبا

وما سكني سوى قتل الاعادي

فهل من زورة تشفي القلوبا

وكل امرأة معه لها ضرائر ، هن الفتوة والمروءة والابوة[٢٦] ،ولاينسى الطعن والقتل حتى في موقف وداع[٢٧] :

نودعهم والبين فينا كأنه

قنا ابن ابي الهيجاء في قلب فيلق

وتقترن القبل بالرمح والطعن[٢٨] :

أعلى الممالك ماينى على الاسل

والطعن عند محبيهن كالقبل

وحين يدعى الى الخمر في مجلس لهو لايستجيب ويتحول الرمح لديه نديما يشرب الدم ويسقيه العزم[٢٩] :

اذا ما شربت الخمر صرفا مهنأ
شربنا الذي من مثله شرب الكرم
ألا حبذا قوم نداماهم القنا
يسقونها ريا وساقيهم العزم

فاقحام جيش في جيش ومعاطاة الصفائح والعوالي الذ عنده من طرب وخمر[٣٠] :

ألذ من المدام الخندريس ... واحلى من معاطاة الكؤوس
معاطاة الصفائح والعوالي ... واقحامي خميسا في خميس

ويحثه رفاقه على الشرب فيأبى ويبذلون ولايقبل وتقوم حالات الغناء والطرب ، وتبدع المغنيات وينسى الانسان همومه فلا يأنس الشاعر الا بصليل السيوف[٣١] :

لاحبتي ان يملأوا ... بالصافيات الاكوبا
وعليهم ان يبذلوا ... وعلي أن لا أشربا
حتى تكون الباترات ... المسمعات فأطربا

ولكنه يدرك حينا وفي فترات محدودة ان هناك مايفوق السيف لطفا وروعة[٣٢] :

وكان اطيب من سيفي مضاجعة
اشباه رونقه الغيد الاماليد

وبما ان الكرم والشجاعة من صفات العصر فلا يستطيع شاعر ان يغفل عنهما في معرض مديح ، وخاصة اذا كان الممدوح فارسا شجاعا ، وقد جمع المتنبي في قصائد بين الصفتين جمعا تتضح فيه براعته الشعرية ونزعته الحربية، فللاشعار في قلب الممدوح جولة واغارة على عطاياه فكأن كل بيت يمثل جيشا يسبي مايشاء من امواله[٣٣] :

في كـل يـوم للقـوافي جـولـة
في قلبـه ولاذنـه اصغـاء
واغـارة فيمـا احتـواه كأنمـا
في كـل بيـت فيلـق شهبـاء

وينفي عن النجوم الخلود، فلو حاربها الممدوح لناحت فيها الثواكل[٣٤]، وغبـار الحروب خيامـه[٣٥]، والحاطة الظبا والعوالـي[٣٦]، ويرى ان بساتين الممدوح هي الجياد، ولا ندري اية صلة غريبة ربطت في ذهنه بينهما[٣٧]:

وبساتينك الجيـاد وما تحمـل مـن سـمهريـة سـمراء

ويبدع المتنبي صورا شعرية حربية متكاملة قد تفوق في دقتها وبراعتها مايحدث فعلا في ساحات الوغى، فلديه خيال حربي لاتحده وقائع حقيقية تعرفها ميادين الحروب والبطولات[٣٨] :

مبرقعـي خيلهـم بالبيـض متخـذي
هـام الكمـاة علـى أرماحهـم عـذبا
ان المنيـة لـو لاقتهـم وقفـت
خـرقـاء تتهـم الاقـدام والهـربـا

ويكثر من التهديد والوعيد ولاينجو من ذلك حتى ملوك العـرب والعجم[٣٩] :

ميعـاد كـل رقيـق الشفرتين غـدا
ومـن عصا مـن ملـوك العرب والعجم

والابيات التي تفصح عن فخره بنفسه وشجاعته واقدامه في الحروب كثيرة، فهو اقوى من ملك الموت واشد جريا في الظلام من خيال[٤٠] :

ماتريـد النـوى مـن الحيـة الـذو
اق حـر الفـلا وبـرد الظـلال

فهو امضى في الـروح مـن ملك المـو

ت وأسـرى في ظلمـــة مـن خيـال

يضرب أعداءه بمنجنيق شعري يمحقهم بما يحمل من أبيات هجاء ويهد اركانهم ويحطم اصولهم[٤١] :

ولـو ضربتكـم منجنيقـي وأصلكـم

قـوي لهـدتكـم فكيـف ولاأصـل

وهو لايجد لنفسه كرامة دون مغامرة واقدام[٤٢] :

ان لـم أذرك عـلى الارمـاح سـائلـة

فـلا دعيـت ابـن ام المجـد والكـرم

ولاعجب ان يجيد الشاعر وصف المعارك والحروب ، ويضفي عليها شيئا من ذاته ، ويمتزج بها ، ويتفوق على الواقع في تأطيرها[٤٣] :

يهـز الجيشـ حـولـك جـانبيـه

كمـا انتفضـت جناحيـها العقـاب

وقد يعجز المصورون والمراسلون الحربيون عن الاتيان بهذه الدقـة واستغراق الحدث وتقديمه في صورة تامة مكثفة مختصـرة في بيـت أو أبيات[٤٤] :

يـزور الأعـادي في سـماء عجاجـة

أسـنته في جانبيهـا الكـواكـب

فتسـفر عنـه والسـيوف كأنمـا

مضـاربهـا ممـا انفللـن ضـرائب

طلعـن شـموسـا والغمـود مشـارق

لهـن وهـامات الرجـال مغـارب

ولاتغادره روحه العسكرية ونزعته الحربية وهو يصف مايـراه من عجائب الطبيعة ، فحين يصل الى بحيرة طبرية ، لاتنسيه مناظرها الخلابـة ساحات الوغى ، وتستغرقه اجواء الطعن والقتال فيرى الموج تزبد وتهدر كالفحول ، ولكن ليس بها شهوة للحرب ، اما الطير ، وهي ترفرف على الماء وتضرب بأجنحتها فيه ، فتبدو كجماعة من فرسان تضطرب على ظهور خيل انقطعت اعنتها ، وتظهر له الامواج ، والطيور من فوقها ، كجيشين متداخلين في هجوم ودفاع واقدام وهروب(٤٥):

لولاك لم أترك البحـيرة والـ غور دفيء وماؤهـا شـــبم

والموج مثـل الفحـول مزبدة تهـدر فيهـا ومابهـا قطـم

والطير فوق الحباب تحسبهـا فرسـان بلق تخـونها اللجـم

كأنهـا والريـح تضـربهـا جيشـا وغى هـازم ومنهـزم

وهكذا تملأ ابواق الحرب مسالك ذهن المتنبي ، في اي مجال كان ، ولكنه يتحول مرة ، في شعره ، الى داعية للسلم ، ويرى ان الحرب ضرورة لدفع الهوان ،ولولاه لاتنتفت الحاجة اليها ، وان روح القتال تولد مع الانسان يسرع كلما أنبت الدهر قناة فيركب فوقها الرماح ويوجهها الى اخيه الانسان وهذه الحياة بما ترفد وتعطي أصغر من ان تتعادى وتتفانى فيها، والاعمار كالحلم ، سرعان ما تنقضي ، والدنيا فانية لاتستحق قتلا وخصومة(٤٦) :

كلمـا أنبـت الزمـان قنـــاة

ركـب المـرء في القنـاة سـنانـا

ومـراد النفـوس اصغـر مـن أن

تتعـادى فيـه وأن تتفـانـى

غـير أن الفتـى يـلاقي المنـايـا

كالحـات ولا يـلاقـي الهـوانـا

وهو حين يسير في شعب بواز ، تأخذ مناظره الطبيعة عليـه مسارب تفكيره ، ويود ان يستقر فيه ، ولايبرحه ، يعجب بالندى يصيب الاشـجار كالجمان ويبدو كاللؤلؤ المنثور ، والاغصان الرائعة تحجب ضوء الشمس

الا قليلا من نور يفلت من بين العرائش ، والامواه والثمار تملأ المكان ،ولكن النزعة الحربية تستيقظ في نفسه بالرغم من ذلك فيريد ان يخرج من ذلك الجو الرائع الى الطعن والقتال فيعترض عليه حصانه(٤٧) :

يقـول بشعـــب بـوان حصـانـــي
أعـن هـذا يسـار الـى الطعـــان

أبوكـــم آدم ســن المعـاصـــي
وعلمكـــم مفــارقـــة الجنـــان

ولكنه كممدوحه يمل اليوم الذي لاطعن فيه ولا دماء(٤٨) :

مللـت مقـام يـوم ليـس فيــه
طعــان صـادق ودم صبيـــب

---

(١) عبدالوهاب عزام ، ذكرى ابي الطيب بعد الف عام ،ط٢ ، القاهـرة ١٩٥٦ ،ص٨٣ .

(٢)ـ(١٥) الديوان ، ج١ ، ص٢٧٢ .ج٣ ، ص٨٢ ، ١٨٦ ، ٣٦١ .ج١ ص٢٩٧. ج٢ ، ص٨٠ ، ١٧٥ .ج٤ ، ص ٢٠٠ .ج٢ ، ص٢٩. ج٣ ، ص١٦٢ .ج٤ ،ص١٥٩ .ج١ ، ص١٢٠ ، ٤١ .ج٣ ، ص٨ .

(١٦) الديوان ، ج١ ، ص١٠ ، ٤٦ . ج٢ ، ص ٢٩٣ ، ٣٤٧ ، ٥٠ ج٣ ،ص٢٨٠ ، ٣٦. ،٣٠ ، ٢٧٤ .ج ٤ ، ص ١٩٠ ، ١٦ .

(١٧)،(١٨) الديوان ، ج١ ، ص٣٠٨ ، ٣٢١ .

(١٩) مع المتنبي ٨٩ .الدولة الحمدانية ٢٧٦ .

(٢٠) الصبح المنبي ٧٨ .

(٢١) الديوان ٤ـ١٦٥ .وينظر : مع المتنبي ٢٢٥ .

(٢٢) ابن الاثير ،المثل السائر ، القاهرة ١٩٥٩ ،ص ٤٧١ .

(٢٣) الصبح المنبي ٤٣١ .

(٢٤)ـ(٤٨) الديوان ، ج١ ، ص١٤ ، ١٣٧ ، ٢٢٧ .ج٢ ، ص٣٠٨ .ج٣ ،ص ٣٤ ج٤ ص٤٦ ج٢ ص١٩١ .ج١ ، ص١٠٦ . ج٢ ، ص٤٠ ، ج١ ، ص٢١ ج٣ ، ص١١٩ .ج١ ،ص٥٤ .ج٢ ، ص١٩٨ .ج١ ،ص٣٣ ، ١١٩ .ج٤ ،ص٢٤ .ج٢ ،ص١٩٣ .ج ٣ ،ص ٢٦٢ .ج٤ ،ص٤٣ .ج١ ،ص٧٦ ، ١٠٧ ج٤ ، ص٦٦، ٢٤٠ ، ٢٥٥ .ج١ ،ص٧٢ .

المتنبي وكافور

لم يحدث أن شاعرا يقصد ممدوحا ، يتقرب اليه ويشيد بمكارمه ، ليحصل منه على ولاية ويشاركه الحكم ، ولاتتحقق آماله ،فيهجوه ويصمه بالعار ، ولايعرف الناس والتاريخ ذلك الممدوح الا من خلال قصائد الهجاء، لانه لم ينخدع ولم يهيء للشاعر ما اراد ، وما كان كافور ساذجا ، وقد ارتقى الى الحكم من أدنى درجات العبودية بدافع من طموح يدرك أبعاده ومراميه عند المتنبي وغيره ، «وكانت سيرته من اغرب السير»[1] ، قدم مصر قنا مجلوبا مع عبيد ، من النوبة او السودان او الحبشة[2] ،ليباع في أسواقها وعمره مابين العاشرة والرابعة عشرة ، فاشتراه تاجر زيت :«حمل نير المعصرة على كاهليه ، وحمل الاواني على عاتقيه ، وجر العجلات بيديه ، وافترش الارض ، وتمرغ في الزيت ، ولقي الكثير من العنت الذي يصحب حرفة كهذه وتعرض لويل كثير ...»[3] ،واشتراه فيما بعد محمود بن وهب بن عباس الكاتب ، وحمل يوما هدية من مولاه الى ابن طغج ، صاحب مصر ، فأعجب بقوته وخلقه وضمه الى حرسه الخاص ،«وكان كافور خبيرا بالسياسة ، نطنا ، ذكيا ، جيد العقل ، داهية»[4] ،فأصبح بحزمه وتدبيره قائد عسكر ، حارب ابن رائق وسيف الدولة في الشام . وعندما توفي سيده أخذ البيعة لابنه أنوجور ، وظن سيف الدولة ان موت ابن طغج يمكنه من دمشق فاستولى عليها وتقدم الى الرملة ولكن كافورا سار اليه فهزمه وأخرجه من دمشق ومن حلب ، ثم اصطلحا[5] ،وكان يدبر في الخفاء ،منذ ان ادرك واقعه والظلم الاجتماعي الذي حاق به ان يتفوق على أسياده ، بعبوديته ،ويحكمهم: «فاستمال العبيد وأفسدهم على ساداتهم»[6] بشكل تاريخي مثير ،«وصار كل عبد بمصر يرى أنه خير من سيده»[7] وانفرد بالسلطة :«وخطب له على منابر مصر والشام والحجاز وبعض الثغور الرومية حتى توفى سنة ٣٥٦ هـ وعمره خمس وستون سنة بعد ان حكم مصر وما يتبعها اثنتين وعشرين سنة ...وكان قويا ، شجاعا ، حازما ، استطاع ان يرضي العباسيين والفاطميين

معا »[٨] ، واكثر حكام مصر ، قبله ، كانوا من الطغاة والمستبدين ولكنه : «غير هؤلاء جميعا رفقا بالناس ••• يوزع عطاياه بين عالم وزاهد وفقير ومحتاج ••• ولم يتعال ويتكبر ، ولم يعاقب من يتحدثون عنه بسوء»[٩] ، «ومما يدعو الى شيء من العجب ان سيبويه المصري كان يعلن سخطه على كافور غير هياب ••• ولكنه لم يتخذ اي اجراء ايجابي لعقابه أو القضاء عليه او الانتقام منه»[١٠] ،لانه متواضع كريم ،حتى مع أعدائه •لديه أموال خاصة بالفقراء والمستورين والمحتاجين تبلغ نصف مليون دينار سنويا ، وموظفون يوزعونها عليهم باشرافه ، وحين يتأكد من قيامهم بواجباتهم يقول : الحمد لله الذي جعلني سببا لايصال الراحة الى عياله ، وحد من سلطة القضاء في عهده وجلس ينظر في المظالم ، ولم يصادر اموال الاخرين ، كما فعل كثير من الحكام ، وكان متدينا ، يتهجد ويمرغ وجهه ساجدا ،ويقول ، اللهم لاتسلط على مخلوقا[١١] •

ويقترن تاريخ كافور بالشعر ، حين ينجح الحساد في ابعاد المتنبي عن حلب ، فيحمل آماله العريضة معه ، بعد خذلان وخيبة ، الى دمشق ،فيطلبه كافور ليوطد به ، كأقوى وسيلة دعائية في عصره ، اركان حكمه ،وخاصة بين الاعراب ، وليصبح كملوك عصره موضع تأليه واشادة وتكريم من الشعراء ويرفض المتنبي ويرحل الى الرملة ، ويطلبه كافور ثانية، وربمايلوح له بولاية، فيشد الرحال الى مصر ،ويدرك بوعي ، ومنذ الوهلة الاولى ، مايفعل ،وأنه في سبيل لقاء العبد :«وقد سأل عنه بعض بني هلال ،فقال : رأيت أمة سوداء تأمر وتنهى»[١٢] ،ويبعد الشاعر عنه هذه الصورة ، فهو في سبيل غاية معينة ، تهون لديها الوسائل ، وحكم وسلطة ، فقد تتحقق الآمال ويستولي على ارجاء كثيرة من المعمورة ، ويغيظ حساده وصاحبهم في حلب ، ولا ينساهم في قصائده الجديدة التي يمدح بها كافورا • ولكنه يفخربنفسه كثيرا ويعرض أحيانا بكافور ، ولم يحدث أيضا ان شاعرا يود ان يحكم عن طريق المدح، لينال من ممدوحه منصبا ، يميل الى السخرية منه في قصائده ،«وكان كافور يعلم يقينا ان ابا الطيب لايضمر له حبا ولاكرامة ، بل كان يزدريه في نفسه •••وحسبه ماكان يذكر في مدحه له من الحنين الى سيف الدولة وندمه على فراقه»[١٣] •

يحمل أبو الطيب ، اذن آماله العظيمة معه ، ويطرحها بين يدي كافور ، وينشده واقفا ، بعد ان أبى ذلك على سيف الدولة :«وفي رجليه خفان ،وفي وسطه سيف ومنطقة»[١٤] :

قـالوا هجـرت اليـه الغيـث قلت لهم

الـى غيـوث يديـه والشـآبيـب

الـى الـذي تهـب الدولات راحتـه

ولايمـن عـلى آثـار موهـوب

ويعد كافور بولاية ، تصريحا وتلميحا ، ولايوفي بوعـده ، ويدرك بتجاربه الكثيرة ودهائه ووسائل مكنته من الوصول الى الحكم ،مدى طموح الشاعر ، فيكتفي بالاعطية والمال ، دون السلطة والسلاح ، وتتوالى أبيات المتنبي[١٥] :

وغـير كثـير ان يـزورك راجـل

فيـرجـع ملكـا للعراقـين واليـا

ويلح ويتعجل ، وتمضي اسابيع وشهور ، وابو الطيب ينظم وينشد، وكافور يعد ويرجع عن وعده[١٦] :

أبا المسـك هل في الكأس فضل أنالـه

فاني أغنـي منـذحـين وتشـرب

اذا لـم تنـط بي ضيعـة او ولايـة

فجـودك يكسوني وشـغلك يسـلب

ويظل الممدوح يشرب ، ويبقي ابو الطيب يقدح آماله بالشعر[١٧] :

وأمضـى سـلاح قلد المرء نفسـه

رجـاء أبي المسـك الكريـم وقصـده

ويفضي اليه بتعال وكبرياء أنه جاء مصر ليختبر صواب رأيه فيه ؛ ولاندري من كان يخدع صاحبه[١٨] :

وما شئـــت الا أن أذل عواذلـــي

على أن رأيـي في هـواك صـواب

ويوغل الشاعر في مديحه ونحس في أبيات له اعجابا كامنا وروحا صادقة وتقديرا عاليا ، وربما اعتبر الممدوح زميلا له في الطموح ، استطاع ان يرقى الى السلطة والحكم ، رغم كونه عبدا مملوكا ، فكيف بشاعر العصر ، يعجز عن ذلك ؟ فليستعن به ، اذن ، وليصبر وينتظر ، وليطر محاسنه وصفاته ، وليمجد جهاده وكفاحه . ويشير المتنبي الى حياة كافور قبل ان يحكم ، وما قاسى من تجارب مريرة كثيرة ايام العبودية والذل والهوان والتهيؤ والتربص بالاسياد للانقضاض عليهم ، وجهاده في سبيل السلطة[١٩]:

وماكنت ممـن ادرك الملـك بالمنـى

ولكـن بأيـام اشـبن النـواصـيا

ويشيد بتدبير الحكم رغم البلاد الواسعة التي تنطوي تحت نفوذه ،فلا تشرق عليها شمس الا ولها منه أذن بالغروب ، ويصف كرمه اللامتناهي يلبي مايطلب منه برضى تام وشوق شديد[٢٠] :

يدبـر الملـك من مصـر الـى عـدن

الـى العـراق فأرض الـروم فالنـوب

اذا أتتهـا الرياح النكـب مـن بلـد

فمـا تهـب بهـا الا بترتيـب

ولا تجـاوزهـا شمـس اذا شرقـت

الا ومنـه لهـا اذن بتغريـب

كأن كـل سـؤال في مسـامعـه

قميـص يوسـف في اجفـان يعقـوب

اذا غـزتـه أعـاديـه بمسألـة

فقـد غـزتـه بجيـش غـير مغلـوب

ويستمر الشاعر[٢١] :

يأرجـاء العيـون في كـل ارض

لـم يكـن غـير ان اراك رجـائي

وتكثر الاماديح ولا تتحقق الآمال ، ويدرك المتنبي اي وهدة وقع فيها ويحاول ان يخلص من ورطته ، ويعرف كافور خطورة ما يحيق به اذا هرب ابو الطيب واذاع فيه اهاجيه ، فيفرض عليه مايشبه الاقامة الاجبارية ، ويستمر الشاعر في النظم ويبدأ بالتعريض والسخرية من كافور بأبيات تحتمل في تأويلها الشيء ونقيضه ، بعد ان احس بعبث وعوده ، فهل نصدق ان الشاعر كان جادا في هذين البيتين ؟ وأي معنى هذا الذي يؤدي بان للممدوح مايسرح بين الارض والسماء ، وانه اعلى من ان يهنأ بمكان في هذا العالم[٢٢] :

أنت أعلى محلة أن تهنا بمكان في الارض او في السماء

ولك الناس والبلاد ومايسر ح بين الغبراء والخضراء

الانجد هنا اشارة الى ماضيه في العبودية[٢٣] :

ترعرع الملك الاستاذ مكتهلا

قبل أكتهال اديبا قبل تأديب

ألا يحوله ، ببساطة الى مربية ومرضع في هذا البيت[٢٤] :

وأنت الذي ربيت ذا الملك مرضعا

وليس له ام هناك ولاأب

والشاعر خير من وصف الحروب والمعارك وضروب الاقدام والجرأة، فأي نوع من الشجاعة يتضمنه قوله[٢٥] :

اذا ضربت بالسيف في الحرب كفه

تبينت ان السيف بالكف يضرب

وفي بيت اخر يقول ان كافورا محاط ، امامه ووراءه ،في الغزوات بمن يقاتل ويطعن ، فيرميه بالجبن[٢٦] :

وأوسع ماتلقاه صدرا وخلفه

رماء وطعن والأمام ضراب

وهذه شتيمةٌ واضحةٌ يتحول فيها أحسن مايثنى عليه عارا[٢٧] :

تجـاوز قدر المـدح حتـى كأنـــه
بأحســن مايثنى عليـــه يعـــاب

وكيف يرضى ان يكون معد بن عدنان والعرب جميعا فداء لكافور ، والمتنبي يعتز بعروبته كثيرا[٢٨] :

وأي قبيـــل يستحقـــك قـــدره
معد بــن عــدنان فـــداك ويعـــرب

ومـا طـربـي لما رأيتـــك بدعـــةً
لقد كنـت ارجـو أن اراك فأطـــرب

واشار الشراح الى مايتضمنه البيت الثاني من هجاء وسخرية ، وقال ابو الفتح بن جني : لما قرأت البيت على ابي الطيب قلت : لم تزد على ان جعلته ابا زنة (لقب القرد) فضحك ابو الطيب[٢٩] ،ويستمر الشاعر[٣٠] :

ومــن قــول ســام لورآك بنسلـــه
فدى ابــن اخي نســلي ونفسي وماليـا

وببراعة لغوية شعرية يجري مقايسة بينه وبين الذباب[٣١] :

جرى الخلف الافيـــك انـك واحـــد
وأنـــك ليـث والملـــوك ذئــــاب

وانـك ان قويســـت صحـف قاريء
ذئابـا ولـم يخطيء فقـــال ذبـــاب

وان مديـح النـاس حـق وباطـــل
ومـدحـك حـق ليـس فيـه كذاب

والشاعر يضحك منه ويسخر ويختلط الجد بالهزل وتنحسر الغاية وتضيع الولاية فيقول [٣٢] :

ولـو كنـت ادري كـم حياتي قسمتهـا
وصـيرت ثلثيهـا انتظـارك فاعلـــم

ويشير في مدحه الى ضرب من هذيان الاعداء المذمومين ، وكان يريد ان يؤكد على اقوال واحداث معينة ، ولايرى طه حسين في ذلك تعريضا بكافور :«فالبيت مديح خالص لاغبار عليه ولالبس فيه»[٣٣] :

عدوك مذموم بكل لسان
ولو كان من اعدائك القمران

ولله سر في علاك وانما
كلام العدا ضرب من الهذيان

أتلتمس الاعداء بعد الذي رأت
قيام دليل او وضوح بيان

وأي دليل واي بيان ؟ ايريد الشاعر ان يشير الى المعجزة او المهزلة الكبرى ان يكون كافور حاكما[٣٤] :

قضى الله ياكافور أنك اول
وليس بقاض ان يرى لك ثاني

فهو حين يتطلع الى ضيعة او ولاية يجد في تربع كافور على دست الحكم اعجوبة للزمان ، ويعيد هذا المعنى في أماديحه[٣٥] :

وما زال أهل الارض يشتبهون لي
اليك فلما لحت لي لاح فرده

ويزيد[٣٦] :

أبا كل طيب لاأبا المسك وحده
وكل سحاب لا أخص الغواديا

يدل بمعنى واحد كل فاخر
وقد جمع الرحمن فيك المعانيا

ويصف الشاعر اتباع كافور والقائمين على خدمته والداخلين في طاعته بانهم مغلوبون على امرهم ، ذلوا تحت سلطانه ،وكانه كارثة طبيعية ماحقة لا يدرأها أحد[٣٧] :

أجفل الناس عن طريق ابي المسـ ـك وذلت له رقاب العباد
كيف لايترك الطريق لسيل ضيق عن أتيه كل واد

ولم يكن من دخل في طاعته سيدا ، وليس له اخلاق السادة وشجاعة الفرسان وطبائع الآساد ، وكأن الشاعر يهجو نفسه[٣٨] :

فبهذا ومثله سدت ياكافو ر واقتدت كل صعب القياد
وأطاع الذي أطاعك والطا عة ليست خلائق الآساد

وعرض بكافور في القصيدة التي مدح بها منافسه القديم في الحكم أبا شجاع فاتكا[٣٩] :

وأجز الامير الذي نعماه فاجئة
بغير قول ونعمى الناس اقوال

وأمثلة السخرية كثيرة في قصائد المديح التي وجهها الى كافور ، ولايغفل عن ذكر سيف الدولة ليغيظه ، ولايكتفي الشاعر بهذا وذاك فيأتي على ذكر لونه الاسود[٤٠] :

يفضح الشمس كلماذرت الشمـ ـس بشمس منيرة سوداء
ان في ثوبك الذي المجد فيه لضياء يزري بكل ضياء
انما الجلد ملبس وابيضاض الـ ـنفس خير من ابيضاض القباء

ويطيل المتنبي التفكير والتأمل في لون كافور ويخرج بانه ، في سواده، انسان عين الزمان[٤١] :

قواصد كافور توارك غيره
ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه
وخلت بياضا خلفها ومآقيا

وفي آخر قصيدة مديح لكافور يذكر لونه الاسود مرات عديدة[٤٢] ، «وكان المتنبي يعلم ان ذكر السواد على مسامع كافور أمر من الموت ، فاذا ذكر لونه بعد ذلك فقد أساء الى نفسه وعرضها للقتل والحرمان ،وكان من احسان الصنعة واجمال الطلب الا يذكر لونه ، وله عنه مندوحة ،ولكن الرجل كان سيء الرأي ، وسوء رأيه أخرجه من حضرة سيف الدولة ،وشدة تعرضه لعداوة الناس ، وقد ذكر سواد كافور في عدة مواضع ، وكان اللائق الايذكره ...»[٤٣] ، وترد مطالعه وأبيات لاتتلاءم وطموح الشاعر الى تحقيق آماله بالمديح[٤٤] :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا
وحسب المنايا ان يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت ان ترى
صديقا فأعيا أو عدواً مداجيا
وللنفس اخلاق تدل على الفتى
أكان سخاءاً ما أتى أم تساخيا

وترد أبيات اخرى في مدائحه لكافور[٤٥] :

أما تغلط الايام في بأن أرى
بغيضا تنائي او حبيبا تقرب
ألا ليت شعري هل اقول قصيدة
فلا أشتكي فيها ولا أتعتب

وتفشل مساعي ابي الطيب واشعاره وشكاواه ، ويدرك كافور مراميه منذ البداية ويستخدمه كمداح ، ولايحقق له رجاء: «أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سمت نفسك الى النبوة ، فان أصبت ولاية وصار لك اتباع فمن يطيقك ؟»[٤٦] ويحكم كافور على آمال الشاعر بالخيبة، ولايستطيع ابو الطيب ان يغادر مصر علانية[٤٧] :

أقمت بأرض مصر فلا ورائي
تخب بي المطي ولا أمامي

قليل عائدي سقم فؤادي

كثير حاسدي صعب مرامي

وينتظر الوقت المناسب للخلاص ، وحين يهرب وتلحق به جند كافور ، وتسري حالة من انذار بين القبائل للامساك به وارجاعه الى مصر ، وينجو ، يبدأ طور جديد من العلاقة الغريبة بينه وبين كافور وتتمثل في الهجاء بعد المديح الذي يعتذر عنه الشاعر بأنه كان هجو الورى(٤٨) :

وشعر مدحت به الكركدن بين القريض وبين الرقى

فما كان ذلك مدحا له ولكنه كان هجو الورى

ويلغي في ابيات ، يحفظها الناس ، تاريخ كافور وأعماله(٤٩) :

لاتشتر العبد الا والعصا معه

ان العبيد لأنجاس مناكيد

ماكنت أحسبني أحيا الى الزمن

يسيءبي فيه كلب وهو محمود

ولاتوهمت أن الناس قد فقدوا

وان مثل ابي البيضاء موجود

ويدعو المتنبي الى التفرقة العنصرية ، خلاف ما آمن به في مطلع شبابه من مساواة بين الناس واشاعة للعدالة الاجتماعية ، اراد ان يكون السيف واسطة لتحقيقها ، وبالرغم مما لاقاه في حلب من عنت واعراض وذل فهو لم يهج سيف الدولة وظل وفيا له ، وكان موضع احتفاء في مصر وعناية وخشية ، ولكن هجا صاحبها ، بعد مديح ، وحوله ضحية من اكبر ضحايا الشعر عبر القرون ، ولم يكتف بشتمه ولكن حرض على قتله ايضا(٥٠) :

ألا فتى يورد الهندي هامته

كيما تزول شكوك الناس والتهم

ولايحفظ الناس بيتا واحدا من مديح المتنبي لكافور ، ويبقى الهجاء حيا في اذهانهم ، وتنتهي العلاقة الغريبة بين الشاعر والممدوح ، وهذا الفيض من الاحداث المتلاحقة ، واستجداء الشعر للسلطة ، واقتران تطلعات الشاعر الى الحكم بالخيبة ، ويثبت الشعر على مدى الايام انه اقوى من الحقائق وله سطوة في عوالمنا تفوق كل نفوذ وتدبير وسلاح ، ويتآمر التاريخ والشعر على كافور ويسدلان الستار على وقائع حياته ، ماله وما عليه ،ولا يستجيب الله لدعائه حين كان يتهجد ويمرغ وجهه ساجدا ويقول اللهم لاتسلط علي مخلوقا .

---

(١) د. سيدة اسماعيل كاشف ، مصر في عصر الاخشيديين ، ط٢ ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص١٣٧ .

(٢) ابراهيم الابياري ، ابو المسك كافور ، القاهرة ١٩٦٢ ،ص١٣٠ .وينظر محمد كمال حلمي ، ابو الطيب المتنبي ، القاهرة ١٩٢١ ،ص٥٨ .

(٣) ابو المسك ١٣٢ . وينظر : مصر في عصر الاخشيديين ١٣٧ .

(٤) مصر في عصر الاخشيديين ١٤٣ .

(٥) ينظر : د. فيصل السامر ، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ،ج٢ ، بغداد ١٩٧٣ ، ص٣٦ ومابعدها . وعبدالوهاب عزام ، ذكرى ابي الطيب، ط٢ ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص١٠٨ ومابعدها . والبرقوقي ص١ـأ .

(٦) ديوان ابي الطيب المتنبي ، تحقيق عبدالوهاب عزام ،القاهرة ١٩٤٤، ص٤٣٦ .

(٧) الصبح المنبي ١١١ .

(٨) ذكرى ابى الطيب ١٩٠ ، ١١٠ .وينظر : مصر فيعصر الاخشيديين ١٠٧.

(٩) ابو المسك ١٤٩ . ومصر في عصر الاخشيديين ١٤٤ .

(١٠) مصر في عصر الاخشيديين ٣٣٦ .

(١١) المصدر السابق ١٤٤ ـ ١٤٧ ، ٢١٠ ،٢٣٩ .

(١٢) الصبح المنبي ١١٠ .

(١٣) شاكر ١٤٧ .

(١٤) الصبح المنبي ١١٢ .والديوان ١ـ١٧٣ .

(١٥)ـ(٢١) الديوان ، ج٤ ، ص٢٩٠ .ج١ ، ص١٨٢ .ج٢ ، ص٢٣ .ج١ ، ص١٩٩ .ج٤ ، ٢٩١ .ج١ ،ص ١٧١ ، ٣٦ .

(٢٢) الديوان ١-٣٢ . وينظر : عبدالقادر المازني ، حصاد الهشيم ،ط٧ ،
القاهرة ١٩٦١ ،ص١٣٥ .

(٢٣-٢٨) الديوان ، ج١ ، ص١٧٠ ، ١٨٥ ،١٨٢ ، ١٩٥ ، ١٩٤ ،١٨٦ .

(٢٩)الصبح المنبي ١١٧ .

(٣٠-٣٢) الديوان ، ج٤ ، ص٢٩٣ .ج١ ، ص١٩٩ .ج٤ ،ص١٤٢ .

(٣٣) طه حسين ، مع المتنبي ، القاهرة .١٩٦٠ ،ص٣١٥ .والديوان ٤-٢٤٢ .

(٣٤-٤٢) الديوان ، ج٤ ، ص٢٤٦ .ج٢ ، ص٢٧ .ج٤ ، ص٢٨٩ .ج٢ ، ص
٣٨ ، ٣٣ .ج٣ ، ص٢٧٧ .ج١ ، ٣٤ . ج٤ ، ص٢٨٧ .ج١ ، ص١٨٨ .

(٤٣) عن الوحيد ، ينظر : الصبح المنبي ١١٦ .

(٤٤)،(٤٥) الديوان ، ج٤ ، ص٢٨١ .ج١ ، ص١٧٧ .

(٤٦) الصبح المنبي ١١٢ .

(٤٧) الديوان ٤-١٤٥ .

(٤٨) الديوان ١-٤٣ .وينظر : المازني ١٣٧ .

(٤٩)،(٥٠) الديوان ، ج٢ ،ص٤٣ .ج٤ ، ص١٥١ .

الشاعر والمرأة

يكثر الشعراء عادة من النظم في الغزل ، وان لم يكونوا متيمين ،يسعدهم ان يحظوا من المرأة بسكانة في أشعارهم ، وان لم تكن لهم في الحب جولات ويحاولون ان يصطنعوا الاجواء العاطفية الحالمة ويظهروا كالمحبين شوقا ولوعة ، وان شغلوا بحب أنفسهم ، وان يبتدعوا حبيبا متوهما ، ان افتقدوه في واقع حياتهم • ولكن المتنبي ينفرد ،هنا ايضا ، بموقف خاص ، وكأنه يهرب من الحب ولا يريد ان يكشف عن نفسه او يسقط مواجده على اشعاره ، ويفضي الينا بأنه بعيد عن المرأة وعوالمها وانه يرى في الحب والتقرب منها ضعفا لا يليق بالرجال ، ويقتنع بعض شراحه ونقاده وقرائه ، ويحارون في التمييز بين الغزل الحقيقي والمزيف حين تختلط المحاكاة بالمشاعر الصادقة في المطالع الغزلية التقليدية ، ويرون انه كان يتغزل بالمجد ويتعشق الرفعة ، ولم يترك طموحه مكانا للمرأة في شعره وحياته وانه مغامر فارس لايمكن ان يخضع لأنثى ، «وان خشونته صرفته عن الاقبال الحقيقي على المرأة»(١) ، ولكن هذه الصورة القاتمة لعلاقة الشاعر بها ، تزول بتعمقنا في شعره الغزلي ، رغم ماوضعه امامنا من صعوبات للوصول الى الحقيقة ، فهو لم يتحدث عن زوجته ابدا ، ولم يورد اسم حبيبة او عشيقة ،وان كان من اسماء الغزل الشائعة ، الا نادرا ، ومرة اصر النحويون أنه أورد اسم امرأة في بيت له (٢) :

ياوجه داهية التي لولاك ما

اكل الضنى جسدي ورض الاعظما

لان داهية هنا غير منصرفة ، واختلف النحويون في ذلك ايضا وتناسوا ان للشاعر صرف مالا ينصرف ومنع الصرف احيانا لما ينصرف •

فهل كان المتنبي يحب ؟ ان تميزه الشديد وتعاليه وطموحه وتفكيره الطويل فيما يود ان يصل اليه من رفعة ، قد لايسنحه هذا الشعور الرائع •

ولكن انفراد الانسان بشخصية متميزة لايعني عدم القدرة على الحب دائما، والتفكير في المعالي قد يضني الشاعر ، ولابد من فترات يعود فيها الى انسانيته فتريق دمه كل ذات خمار يلتقيها[٣] ، او ان تكون امرأة مابؤرة طموحه فيحدثها في اشعاره عن امجاده . ولا شك ان شاعرنا قد مر باوقات اجتاحهفيها شعور غامر بالحب والحنين الى المرأة ، وهو لا يدعي ما ليس له كآخرين يرتدون مسوح العاشقين تمويها :«وقد يتزيا بالهوى غير أهله»[٤] ،ونجد ان احساسه العميق بالحب يقوى في شبابه :«وما انا الا عاشق ...»[٥] ، ويخفت في كهولته ، كما تفرض طبيعة الحياة ، وانه لم يستطع لعشقه كتمانا رغم عملية تضليل سادت بعض اشعاره ، ورغم حذره الشديد ،واقناعنا بان اللطف مع النساء والفخر بسكانته عندهن عار[٦] :

ليالـــي عنــد البيض فوداي فتنـــة

وفخــر وذاك الفخــر عنــدي عـــاب

ويحس بخجل وحياء من الخلوة بالنساء ، ويحتج على نفسه ، ان وقع في هذا المأزق ، «فحبه حب عربي أولي لايشذ عن التقاليد ولايتعداها»[٧] :

اذا كنت تخشى العــار في كــل خلــوة

فــلم تتصبــاك الحســـان الخــرائــد

ويحاول ان يقنعنا بأن الحب وهم يتشبث به الانسان طريقا الى الجنس والتمكن من الوصل ،وان له مناعة شديدة ضد العشق ، وان قلبه لايمكن ان يصير رمية للغواني ، وان شهواته ومطامحه تنحصر في الحروب والغزوات، تبريرا وتفسيرا لعزوفه عن النساء الذي يود ان يؤكده في شعره ، وان خير جليس في الزمان ليس امرأة على اية حال[٨] :

ومــا العشــق الا غـــرة وطماعـــة

يعرض قلـــب نفســـه فتصـــاب

وغــير فـــؤادي للغوانـــي رميـــة

وغــير بنـــاني للـرمـــاح ركـــاب

تـركنـا لأطـراف القنـا كـل شهوة

فليســـن لنـا الا بهـــن لعـــاب

اعــز مكــان في الدنــا سرج ســابح

وخـير جليســن في الحيــاة كتـــاب

ولكن الشاعر العاشق الوامق لايستطيع ان يحجب عنا الحقيقة بهذه الابيات ، ففي فترات من حياته ، وان كانت قصيرة ومتباعدة ، اضناه الحب، وترك اثرا ولم يكشف ذلك في شعره وحاول ان يتجاوزه ، ترفعا وخجـلا وابتعادا عن المواجد الخاصة ، وترسيخا لمواقف الجد والبطولة والنضال ، وايمانا بان الحب يكشف بوضوح ، عقدة الكمال التي اجتاحت الشـاعر، باظهار نقص فيه محتم ، تطمئنه وتتممه المرأة ، فهو بدونها لايستقل بذاته عن هذه الدنيا ، ولا يصطنع عالما خاصا له حدود وأسوار ، فيرفض وجودها احيانا ليوهم نفسه بالكمال التـام . الا ان حبـه وتطلعـه الـى النســاء ورد ، بالــرغم منــه ، واضحـــا في ثنـايـا بعضـ قصائـده :«ومن يعشق يلذ له الغرام»[٩] ، ولايمكن ان تفسر ابياته الغزلية كلها بمحاكاة الاصول الشعرية السائدة في المديح وافتتاح القصائد ، فشيء من الصدق فيها يمنعنا من ذلك ، والصورة التي تفصح عنها هذه الابيات لايمكن الا ان تقنعنا بواقعيتها[١٠] :

قبلتهـــا ودمــوعــي مــزج أدمعهـا

وقبلتنـــي عــلى خـوف فـماً لفـم

فـذقـت مـاء حيـاة مـن مقبلهـــا

لـو صاب تربـا لأحيـا سـالف الامم

ترنــو الـي بعـين الظبـي مجهشـــة

وتمسـح الطـل فـوق الورد بالعنـم

رويـد حكمـك فينـا غـير منصفـة

بالنـاس كلهـم أفديـك مـن حكـم

أبديت مثل الذي ابديت من جزع
ولم تجني الذي أجننت من ألم

وهذا الغزل الرقيق ، لابد ان يكون صادقا[11] :

الام طاعية العاذل
ولا رأي في الحب للعاقل
يراد من القلب نسيانكم
ويأبى الطباع على الناقل
واني لأعشق من عشقكم
نحولي وكل امرىء ناحل
ولو زلتم ثم لم أبككم
بكيت على حبي الزائل
وهبت السلو لمن لامني
وبت من الشوق في شاغل
كأن الجفون على مقلتي
ثياب شققن على ثاكل

ونيران فؤاد المحب تحرق كل تسويه وتضليل ، فالفراق ممض ، ومن أغذت في السير اليوم ، كان يقعدها عن النهوض كفل ، هو من مقاييس الجمال العصرية السائدة ، لها صفات انثى مثالية ، والعذال لاهم لهم ، يحاولون ان يرشدوا فئات اضلها الله بالحب والهيام ، والشاعر يسهر شوقا لمن يبيت الليل هانئا ، وتنجده الدموع وشئونها . ويصعب الفصل بين الحب والجنس في الشعر والواقع ، وعند الشاعر وغيره ، ولانستطيع الا ان نقرن هذه الاشعار الغزلية بالحقيقة فالشاعر يعنى بترسيخ الصورة المعاكسة ، ولايكذب في اثبات مايريد نفيه ، وهو المشهود له بانه لم يكذب قط[12] :

ففي فؤاد المحب نار جوى
أحر نار الجحيم أبردها

بانـوا بخـرعـوبـة لهـا كفــــل

يــكاد عنــــد القيـــــام يقعـــدها

ربحلــــــة أســـــمر مقبلهـــــا

ســبحلــــة أبيـــض مجـردهـــــا

ياعــاذل العــاشـــــقين دع فئـــة

أضلهـا اللـه كيـــف تـرشـــدها

بئس الليالــي سـهرت مــن طـربـي

شـــــوقا الــى من يبيــت يـرقدهـا

أحييتهـــــا والـدمـوع تنجـــدني

شـــئونهـــا والظــلام ينجـــدها

وان كان الشاعر بريئا من العشق ، فما الذي جرى له بدار أثلة ، أيام تجرير ذيوله ؟ وكيف لايهمه امر النساء ، وهو بهن شهيد مقتول ، ترديـه سهام العيون ، وتحلو له القبل ، ويضنيه قوام ضرب فيه العنبر بماء الورد ، وتأسره طرة شعر ، ويفدي سقاة دماء العناقيد بنفسه وما يملك من طارف وتليد ، وشهود الهوى عنده الشيب والذل والنحول ؟ ايمكــن ان نصف صاحب هذه الابيات بان بينه وبين النساء جفوة ،وانه كان تقليديا صرفا في اياته الغزلية(١٣) :

كــم قتيل كمــا قتلت شــهيد	ببياض الطلـى وورد الخـدود
وعيــون المهــا ولا كعيـــون	فتكــت بالمتيـــم المعمـــود
در در الصــبا أأيام تجـريــ	ــر ذيولـــي بدار أثلــة عــودي
عمــرك الله هل رأيت بــدوراً	طلعــت في براقــع وعقـــود
راميــات بأسهمٍ ريشــها الهد	ب تشق القلــوب قبـل الجلود
يترشفن مــن فمــي رشـفات	هــن فيــه احلى من التوحيـد
ذات فــرع كأنمـا ضرب العنـ	ــبر فيه بمــاء ورد وعــود

أهل مابي من الضنى بطلص ـسيد بتصفيف طرة وبجيد
كل شيء من الدماء حرام شربه ماخلا دم العنقود
فاسقنيها فدى لعينيك نفسي من غزال وطارفي وتليدي
شيب رأسي وذلتي ونحولي ودموعي على هواك شهودي
اي يوم سررتني بوصال لم ترعني ثلاثة بصدود

وواضح ان الشاعر صاحب مغامرات وحكايات في عالم الحب[١٤] :

حاولن تفديتي وخفن مراقبا
فوضعن ايديهن فوق ترائبا

وتتضرج وجنات المحب بنظراته[١٥] :

مابالـه لاحظتـه فتضرجـت
وجناتـه وفـؤادي المجـروح

وله تجارب وجولات ، وان ترفعه وعفته لايمنعان تدلها ووقوعا في الغرام[١٦] :

يرد يدا عن ثوبها وهو قادر
ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

ويعود يوهمنا بان المرأة لاتأخذ منه غير ساعة يجوب بعدها الفلاة الى غير لقاء ، فيفصح عن خجل غامر ينتابه ويقلقه فيبعد عنا صورة المحب العاشق[١٧] :

وللخود مني ساعة ثم بيننا
فلاة الى غير اللقاء تجاب

وان كان ذلك حقا فاين نضع زياراته للاعراب في الليل والعودة مع الفجر ، ووصفه للبدويات الحسان اللائي لم تزيفهن المدن ولم تشوه

انسانيتهن طقوس الحضارة ؟ يعشق المرأة الحقيقية ويموت فيها هياما ، ولايطيق الزائفة التي موهت حياتها بتمثيل وتصنع وكذب ورياء[18] :

كـم زورة لـك في الاعـراب خـافية
أدهـى وقـد رقدوا من زورة الذيـب

أزورهـم وسـواد الليـل يشـفع لـي
وأنثنـي وبيـاض الصبح يغـري بـي

حسـن الحضـارة مجلـوب بتطـريـة
وفي البـداوة حسـن غـير مجلـوب

أفـدي ظبـاء فـلاة ماعـرفن بهـا
مضغ الكـلام ولاصبـغ الحـواجيـب

ولابـرزن مـن الحمـام مـائلـة
اوراكهـن صـقيـلات العـراقيـب

ومـن هوى كل من ليسـت مموهـة
تـركـت لون مشيبي غـير مخضـوب

وكيف تم له ، بلا تجارب ثرة عديدة وخبرة وتمرس ، ان يقارن بين البدوية والحضرية ، وان يفضل هذه وينبذ تلك[19] :

هـام الفـؤاد باعرابيـة سـكنت
بيتـا من القلـب لـم تمدد له طنبـا

مظلومـة القـد في تشبيهـه غصنـا
مظلومـة الريـق في تشبيهـه ضـربـا

بيضـاء تطمـع فيمـا تحـت حلتهـا
وعـز ذلـك مطلـوب اذا طلبـا

مـرت بنـا بـين تـربيهـا فقلت لهـا
مـن أيـن جانس هذا الشـادن العربـا

فهو لايترك هذا الشادن يمر دون ان يسمعه غزلا ويتوقع ردا ،وكأبناء هذا العصر يداعب الحسـان ويعترض طريقهن دون وجل ، فهذه التي سفكت دمه وتقلدته ، وجمعت بين حسـن الشمس والقمر ، تساءلت عن اصفرار لونه ، فأجابها ، ومضت على استحياء تتمايل كالغصن ، وتقوم الحروب دونها وتسلب النفوس[٢٠] :

ان التـي سـفكت دمـي بجفـونهـا
لـم تـدر ان دمـي الـذي تتقلـد
قالـت وقـد رأت اصفراري مـن بـه
وتنهـدت فأجبتهـا المتنهـد
فمضـت وقـد صبـغ الحياء بياضها
لـونـي كمـا صبغ اللجـين العسـجد
فرأيت قـرن الشمس في قمـر الدجـى
متـأوداً غصـن بـه يتـأود
عدويـة بدويـة مـن دونهـا
سـلب النفـوس ونار حـرب توقـد

ويحدثنا عن شامية طالما خلا بها ،قبلت ناظره وكأنها تقبل فمها لانها تبصر نفسها فيه ، وهي ذات عينين لا ترجى سلامة من دهت فؤاده بنظراتها[٢١] :

شـاميـة طالمـا خلـوت بهـا
تبصـر في ناظـري محيـاهـا
فقبلـت ناظـري تغـالطنـي
وانمـا قبلـت بـه فـاهـا
كـل جريـح ترجـى سـلامتـه
الا فـؤاداً دهتـه عينـاهـا

وعن أخرى تقدم اليها بشفاعة لاترد[٣٢] :

وغضبى مـــن الادلال سكرى من الصبــا

شــفعت اليهـــا مـــن شـبابي بريق

ويصبح الفراق عنده اسوأ من الموت[٣٣] :

انـــي لأجبـــن مـــن فـــراق أحبتـــي

وتحـــس نفســـي بالحمــــام فأشجـــع

فالفراق مر شديد تعلق نيرانه بالكبود وتقتل الصبابة العاشقين[٢٤] :

فواحســـرتـــا مـــا أمـــر الفــــراق

وأعلـــق نـــيرانــــه بالكبـــــود

وأغـــرى الصبـــابـــة بالعـــاشـــقين

واقتلهـــــا للمحـــــب العميـــــد

وألهـــج نفســـي بغـــير الخنـــــا

بحـــب ذوات اللمـــى والنهـــود

وتحيافي نفسه ذكريات دائمة وجروح لاتندمل وحب لايشفى ، ويسعد حين يجدد له الهوى تلك الذكريات وان كان الحنين اليها يحطم الصخر ، وحين تمنعه أطياف الماضي من النوم يجد لذة في الليالي الطويلة ، ويرى كل شيء في الدنيا حسنا ، ويتحول القلام وهو نبت كريه الى ورد حين يرعاه سرب الحبيبة التي تحيا في اهابه ولاتفارقه ، واليأس منها وعد ووصال ، وكأنها على بعدها حاضرة تمسح مدامعه وتعبق رائحتها في اثوابه ، فهل يمكن ان نعتبر هذا وذاك ضربا مـــن التقليد والمحاكاة ؟ ام أننا نحس بان الشاعر عاشق صادق ، وان هذه التي خلفت في نفسه لوعة وحسرة امرأة حقيقية[٢٥] :

أســـر بتجـــديد الهـــوى ذكر مامضـــى

وان كان لايبقـــى لـــه الحجـــر الصلـــد

ســـهاد أتانا منـــك في العـــين عنـــدنـــا

رقـــاد ، وقـــلام رعـــى ســـربكم ورد

ممثلـة حتـى كـأن لـم تفـارقـي

وحتى كأن اليأس من وصلك الوعد

وحتـى تكادي تمسحين مـدامعـي

ويعبـق في ثوبـي من ريحـك النـد

وأي نداء تتضمنه هذه الدعوة ؟ واي حنين طاغ[٢٦] :

زودينـا من حسـن وجهك ما دام فحسن الوجوه حال يحـول

وصلينـا نصلك في هذه الدنـ ـيا فان المقام فيهـا قليـل

ويجري الحب كمجرى الدم في مفاصله ويشغله عما سـواه ويذهله عـن الدنيـا[٢٧]:

جـرى حبهـا مجرى دمـي في مفاصلي

فأصبح لي عن كـل شـغل بهـا شـغل

وقد تكامل حسن الحبيبة في ناظريه ، بعقد لؤلؤها واتنظام كلامهـا وحلاوة ثغرها[٢٨] :

فتاة تسـاوى عقـدها وكـلامهـا

ومبسـمها الـدري في الحسن والنظـم

وما اكثر حبيباته، يصف اخرى تناهى سكون الحسن في حركاتها ،وكأنها صورة مجسمة له ، وليس هناك عذر لمن يراها ويبقى على قيد الحياة[٢٩] :

تنـاهى سـكون الحسـن في حركاتهـا

فليـس لراء وجهها لـم يمـت عـذر

ويحب الجمال الحبيبة فيؤثرها بأروع صفاته [٣٠] :

حبيـب كأن الحسـن كـان يحبـه

فآثـره أو جـار في الحسـن قاسمـه

وبالرغم من حبه للمجد وللحرب والفروسية فانه يفضل النساء احيانا على السيف[٣١] :

وكان أطيب من سيفي مضاجعة
اشباه رونقه الغيد الأماليد

واذا لم يكن المتنبي عاشقا متمرسا ، فمن اين هذه الخبرات وهذه النتائج التي استخلصها من تجاربه ؟ بان احلى الهوى ماصاحبه شك في الوصل فيحيا المحب بين الرجاء والاتقاء ، اي ان يعيش حبه حقا ، فلا يموت بهجر ونسيان او وصال مضجر دائم[٣٢] :

وأحلى الهوى ماشك في الوصل ربه
وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

ولاعهد للنساء والغدر من شيمتهن ، يتطرفن في السخط والرضا والحقد والحب ، ويتيه في فهمهن الرجل الراشد ، فهن ألغاز تصعب حلولها ، الا ان الحب بالرغم من ذلك باق يشتد مع الزمن ، ولايسلو الشاعر ولاتهدأ لواعجه[٣٣] :

اذا غدرت حسناء وفت بعهدها
فمن عهدها ان لايدوم لها عهد
وان عشقت كانت أشد صبابة
وان فركت فاذهب فما فركها قصد
وان حقدت لم يبق في قلبها رضا
وان رضيت لم يبق في قلبها حقد
كذلك اخلاق النساء وربما
يضل بها الهادي ويخفى بها الرشد
ولكن حبا خامر القلب في الصبا
يزيد على مر الزمان ويشتد

وبعض خيبات في الحب تدفعه الى الشكوى من النساء وهجوهن[٣٤]:

ومـن خبـر الغـوانـي فالغـواني
ضيـاء في بواطنـه ظـلام

ويرى الدنيا خؤونا كمومس ، ولكن موقفه المعادي للمرأة لايستقيم ضدا لما حفل به شعره من مديحها ، ويختلط الحدس بالواقع ، ونرجح ان للنساء شأنا كبيرا في حياته ، حاول ان يتستر عليه وان يكون فيه حذرا ٠

ويحلو لبعض الكتاب ان يعتقدوا بان المتنبي كان يحب خولة ، اخت سيف الدولة ، وان أبا فراس ، ابن عمها ، كان يمقته لذلك ، ولانملك ادلة مقنعة ، وكيف يحبها الشاعر وحولها بنو حمدان ؟، وكيف التقاها وهويقول في رثائها :«قد كان كل حجاب دون رؤيتها»[٣٥] ؟ وهل يمكن ان يقع المتنبي في حبها فيغامر بمواقعه في حلب التي هيأت له الرفعة ووطأت له خطوات اخرى في دروب المجد ، يهون لديها حب امرأة ؟ وكيف يطمع منها بوصل وهو متزوج ؟ وهل في شعره مايدل على هذا الحب ؟

يقول في احدى قصائده لكافور أنه بعد ارتحاله من حلب خلف أناسا يبكون فراقه ، منهم رجال ونساء ، ولكنه ينفي ان تكون النسوة اللائي أسفن على فراقه ذوات تأثير عليه وان الذي يهمه حقا هو موقف سيف الدولة منه[٣٦] :

رحلـت فكـم باك باجفـان شـادن
علـيَّ وكـم باك باجفـان ضيغـم
وما ربـة القـرط المليـح مكـانـه
بأجـزع مـن رب الحسـام المصمـم
فلـو كـان مابـي من حبيـب مقنـع
عـذرت ولكـن مـن حبيـب معمـم

ولايخص بهذه الابيات امرأة معينة ، ولو كان يحب خولة لبان هذا الحب في رثائه لها ، ولكننا نجـد حزنا صادقا يشارك به اخاها ، ويطري اخلاقها الحميدة وعفتها ورفعة نوازعها ، ولايمكن ان نخرج مـن هذيـن

البيتين بحب او عشق ، فهما جزء من تعبير شعري تحتمه كتابة قصيدة رثاء يحاول ان يكون فيها متميزا كعادته[٣٧] :

فليـت طالعـة الشمسين غائبـة
وليـت غائبـة الشمسين لـم تغـب
وليـت عـين التي آب النهـار بهـا
فـداء عـين التـي زالـت ولـم تؤب

وقامت مقارنة بين رثائه لها ورثائه لأختهـا من قبل :«فلو لم يكـن لخولة اثر ايجابي في نفسه او لاختها اثر سلبي لما اقدم على المفاضلة بينهما في محفل العزاء ... فهو لم يقف عند الصغرى حينما رثاها وقفته عند ذكـر مناقب اختها»[٣٨] ، وهذا الرأي مستمد مما ذهب اليه محمود محمد شاكر بأن المتنبي قد احب خولة فعلا ، بمقارنة رثائه لاخت سيف الدولة الصغرى وذكرها في بيتين ، ورثائه لخولة وذكرها في ٣١ بيتا ، ويرى :«ان كلامه هذا ليس كلام شاعر يرثي أخت صديقه واميره وانما هو كلام قلب محب مفجوع قد تقطعت آماله من الدنيا بموت حبيب قد فجعته المنية فيه»[٣٩] ،ويجهـد مارون عبود في اثبات ذلك الحب ليخالف ماذهب اليه طه حسين حين نفاه :«لماذا لاتحب ست الناس اشعر الناس ؟ فهو نجي اخيها وناموسه ولسانه وسيره ، وماذا تريد خولة بعد ؟ ليت الحظ اسعد أخت امير السيف بزفافها الى أمير القلم ، لنبارك لها بهذا العريس الفذ ،ولكن ان اراد سيف الدولة فأبو فراس الحسـود وابو العشائر الكنود لايريدان ، وما قدر كان»[٤٠] ، ويدعـم رأيه بما يثير لديه شكا قويا مما حدث بين المتنبي وسيف الدولة من قطيعة ! ويجد في هذا البيت :

ولاذكـرت جميـلا مـن صنائعهـا
الا بكيـت ولا ود بـلا سـبب

عاطفة حاول الشاعر اخفاءها فأبت الا ان تمد اذنيها ، ثم يعلل الحنين الدائم الى سيف الدولة بحبه لخولة ويراها وراء محاولة اغتياله في حلب[٤١].

ولكـن المتنبي رثى اخت سيف الدولة الصغرى قبل رثائه لخولة بثمان سنوات ،وحين كان في حلب ، يمارس المديح والرثاء ، كأمر لامفر منـه ،

ولادخل لمشاعره الحقيقية فيه ، كما نرى في رثائه لأم سيف الدولة[٤٢] ، الا ان خولة ماتت بعد رحلته الى مصر وعودته الى العراق ، وخيبة آمالـه في السلطة ، وابتعاده عن سيف الدولة ، ومحاولة كثير من رجال وادباء العصر في العراق وغيره الانتقاص منه ، مما أثار شجونه واعاد له ذكرياته في حلب فجاءت قصيدته خيرا من الاولى واكثر شاعرية وقوة وتعبيرا عن المدفين ، ولأن خولة كانت امرأة ذات مكانة عالية ، لها أياد على الشاعر ،وهذا لايعني بالتأكيد ان يكون بينهما حب خالد ، ولا نستطيع ان تتخذ من طريقته في مرثية معينة قاعدة يجب ان يتبعهافي مرثية اخرى بعد سنوات عديدة ،اما ماحدث بين الشاعر والامير وبينه وآل حمدان فنميل الى تفسيره بشخصيته المتميزة وطموحه وصراحته وجرأته وجفائه وطبقة الحساد الذين احاطوا به كما جاء في الفصل الاول من هذا الكتاب[٤٣] .

---

(١) مارون عبود ، الرؤوس ،ط٣ ، بيروت ١٩٦٧ ،ص١١٩ .

(٢)ـ(٦)الديوان ، ج٤ ،ص٢٨ ،٣٦ .ج٣ ، ص٣٢٧ .ج١ ، ص١٨٩ .

(٧) الرؤوس ٢٧٨ . والديوان ١ـ٢٦٩ .

(٨)ـ(١١)الديوان ، ج١ ، ص١٩٣ .ج٤ ،ص ٧٥ ، ٣٧ .ج٣ ، ص ٢١ .

(١٢) الصبح المنبي ٩٤ .والديوان ١ـ٢٩٦ .

(١٣)ـ(٣٧)الديوان ، ج١ ، ص ٣١٣ ومابعدها ، ١٢٣ ، ٢٤٥ ، ٢٦٨ ، ١٩٢ ، ١٦٠ ، ١١٢ ، ٣٢٨ .ج٤ ، ص٢٧٠ .ج٢ ، ص٢٦٩ .ج ١ ، ص٣٤٢ . ج٢ ، ص٣ .ج٣ ، ص١٤٩ ، ١٨١ .ج٤ ،ص٤٩ .ج٢ ، ص٢٢٤ .ج٣ ص٣٣١ .ج٢ ، ص٤٠ ، ٣٠٥ ،٣٠ .ج٤ ، ص٧٢ .ج١ ، ص ٩٢ .ج٤ ، ص١٣٤ .ج١ ،ص٩١ .

(٣٨) سهيل عثمان ومنير كنعان ، المحصول الفكري للمتنبي ، بيروت ١٩٦٩، ص١٩٨

(٣٩) شاكر ١٣٠ .

(٤٠) الرؤوس ٢٢٩ .

(٤١) المصدر السابق ٢٢٨ ومابعدها .

(٤٢) الديوان ٣ـ ٨.

(٤٣) يدرس د . عناد غزوان اسماعيل في المرثاة الغزلية في الشعر العربي،بغداد ١٩٧٤ ، ص٥٨ ومابعدها ، مرثية المتنبي في خولة ويرى انها تتضمن ما يؤكد حبه لها .

غربة المتنبي

غربة المتنبي تكمن في تميزه وتمرده على تقاليد عصره ونزعة ، تطغى على افعاله ، بادعاء الكمال ورفض النقص والضعف عند البشر ،والبحث عن الانسان الامثل ، وتمجيد القوة والبطش ، وتحقيق الاماني المعقولة وغير المعقولة بالسيف ، واختلاط الحلم بالواقع والظل بالاصل ، ومحاولة خلق العالم من جديد ، وبشكل يهيء له ان يتربع على عروشه جميعا ، وقلقه وشعوره بانه مطارد دوما ،يحيط به الاعداء والحساد ، وحيرته ازاء معميات هذا الكون الذي لم يجده كما يحب ، طوع يديه ورهن اشارته ، وعبدا لكلماته الشعرية ورغباته الشخصية ، والعذاب الفكري الذي عاناه في رحلته الدائبة ، وعلاقاته مع الممدوحين ورجال الحكم ، واحساسه بانحدار الانسان المعاصر ، وانعكاس ذلك في ارادة الانتصار والتفوق الشخصي بما يتجاوز طقوس العظمة والابهة المعهودة بين البشر وبتطلعات لا حدود لها ولا اطار ، للوعي والاختيار فيها نصيب ، غذاها الشاعر بهواجسه وامدها بما يزيدها تعقيدا ومرارة(١) :

أنا في أمة تداركها الله   غريب كصالح في ثمود

ويقوم صراع في نفسه وتتشابك هذه النوازع جميعا وتصاحبها خيبة دائبة بما لايستطيع تحقيقه فيرضى بان يكون من حكام عصره ،دون ان يدري بان امجاده الشعرية ، وما فرضت من شهرة وخلود ، تهون عندها وتصغر وتتضاءل تلك الشهوة الشخصية الخاصة بالتسلط والسيادة وتبدوله الحياة مضنية متعبة فيكثر من الصخب والشكوى ، ويهدد ويتوعد ، ولاتدرج آماله في جو طبيعي قائم على ركيزة فلسفية او معطيات فكرية ملائمة تتحد بعطاء انساني ينتج عنه موقف ثابت واحد في كل الظروف والاوقات ، ولاتنفعه حكمه ،ويتم الانفصال بينه وبين الاخرين ،وتصبح حياته هروبا دائما متواصلا ومنفى متنقلا ، ولايجد لتبديد طاقاته الكامنة المتضاربة غير الشعر(٢) :

ولكن قلبا بين جنبي ما له

مدى ينتهي بي في مراد أحده

وكأني بالشاعر يولد طفلا ، لام هي البشرية ، اراد بتيه ودلال وخيلاء ان تلبي حاجاته وان تحقق طلباته وطموحه وان تهيء له مايريد ، عدته موهبته الشعرية . ولم تفعل ، همومها الحقيقية الكثيرة شغلتها عنه ،وبقي يصخب بآماله التي لم تتجسد واقعا يبعد عنه الاغتراب ، والشكوى من صروف الدهر التي حاربته ووقف عاجزا ازاءها ، والزمن الخؤون الذي كاد له ولم يخضب هامته بسيفه[٣] .

ويترك بلدته ، في مطلع شبابه ، ويسيح فيما يعرف من بقاع الارض ، ويثور ليملأ الدنيا عدلا ، ويسجن ، وتطول رحلته ولايهدأ عنفوانه[٤] :

تغرب لامستعظما غير نفسه
ولا قابلا الا لخالقه حكما
ولاسالكا الا فؤاد عجاجة
ولا واجداً الا لمكرمة طعما
يقولون لي ما انت في كل بلدة
وما تبتغي ، ماابتغي جل ان يسمى
كأن بنيهم عالمون بأنني
جلوب اليهم من معادنه اليتما

ويوغل في الغربة ، ويبكي معها احبابه ، ويحن الى أهله ، ويهوى لقاءهم[٥] :

يضاحك في ذا العيد كل حبيبه
حذائي وابكي من أحب وأندب
أحن الى اهلي واهوى لقاءهم
واين من المشتاق عنقاء مغرب
وكل امرىء يولي الجميل محبب
وكل مكان ينبت العز طيب

ولكن ذلك المكـــان يجفوه ، ويتطلع اليه ولايجده ، والانسان الذي يولي الجميل لاتعرفه غير الاحلام ، ويعوض الشاعر عن هذا وذاك بأعز مكان وخير جليس[٦] :

أعـــز مكـــان في الدنـــا سرج ســـابح

وخير جليســـــ في الحيـــاة كتـــاب

بعد ان وجد نفسه غريبا اينما توجه وسار [٧] :

مغـــاني الشـــعب طيبـــا في المغـــاني

بمنزلـــة الربيـــع مـــن الزمـــان

ولكـــن الفتـــى العـــربي فيهـــا

غـــريب الوجـــه واليـــد واللســـان

فيدعـــو الى التـــوحد الكلي[٨] :

ذرانـــي والفـــلاة بـــلا دليـــل

ووجهـــي والهجـــير بـــلا لثـــام

ويستغني عن الاوطان ومن فيها ، ولايحن الى مكان يغادره ، ويصدى ويرفض ان يبدي الى الماء حاجة[٩] :

غنـــي عـــن الاوطـــان لايســـتفزنـــي

الى بلـــد ســـافرت عنـــه ايـــاب

واصدى فـــلا ابـــدي الى المـــاء حاجـــة

وللشمـــس فـــوق اليعملات لعـــاب

وتعزله غربته عن الاخرين ، ويقع في وهدة الصلف والتعالي والتفاني في تثمين وتأكيد وتضخيم الذات ، واحتقار الناس ، وكأنه يرتفع بانخفاضهم وينتصر باندحارهم ، في معادلة غير متزنة ، ابتدعها الشاعر ولم يهنأ بهـــا ،

ولم تمده غربته بمشاركة في عطاء يرفد بالخير ، ينقذه من ذاته ويخرجه عنها قليلا ، وظل وحيدا نائيا بنفسه عن الجموع ، معتزا بتفرده وعالمه الخاص[١٠] :

بم التعلـــل لاأهـــل ولاوطـــــن
ولانديـــم ولا كأســـ ولاســـكن
أريـــد مـــن زمنـــي ذا أن يبلغنـــي
مـــا ليـــس يبلغـــه مـــن نفســـه الزمـــن
ممـــا أضـــر بأهـــل العشـــق أنهـــم
هووا ومـــا عـــرفوا الدنيـــا ولا فطنوا
تفنى عيـــونهم دمعـــا وانفســـهم
في اثـــر كـــل قبيـــح وجهـــه حســـن
تحملـــوا حملتكـــم كـــل ناجيـــة
فكـــل بـــين علـــي اليـــوم مؤتمـــن
ما في هـــوادجكـــم من مهجتـــي ثمـــن
ان مـــت شـــوقـــا ولافيهـــا لها ثمـــن

ويحمل معه في اغترابه نقيضه الاكبر ، طموحه غير المحدود ، ويعتمد في تحقيقه المال والسيف والشعر ، وتكدست الاموال ، ولم تجد ، وتبددت في مقتله ، وكان للسيف عنده صولة وجولة ، ولكنه لايغطي ابعاد ذلك الطموح وحده ، وبقى الشعر واوقعه في اغتراب جديد وذل لدى الممدوحين وخضوع لامزجتهم المختلفة : «اني ملقى من هؤلاء الملوك ، اقصد الواحد بعد الواحد، وأملكهم شيئا يبقى ببقاء النيرين ،ويعطونني عرضا فانيا .ولـــي ضجرات واختيارات فيعوقونني عن مرادي فاحتاج الى مفارقتهـــم علـــى اقبـــح الوجوه»[١١] . ولكن ، ايترك المديح ويترفع عنه ويرذله[١٢] :

أبـــا ســـعيد جنـــب العتـــابـــا فـــرب رائي خـــطأ صـــوابـــا

فانهـم قـد أكثروا الحجـابا واسـتوقفوا لردنـا البـوابـا

وان حـد الصـارم القـرضابا والذابـلات السـمر والعرابـا

يـرفع فيمـا بيننـا الحجـابا

واذا ترك المديح فمن سيدركه ، اذن ، من أبناء عصره باعجاب ؟وان خلدته العصور الاخرى ، فما قيمة ذلك اذا افتقده في حياته ؟ كيف يمكنه الشعر بلا أماديح ان يعرف سيف الدولة والاخرين ؟ ان يرتاد قصور الملوك والامراء ، ان يخوض حروبا وغزوات ، ان يفخر بنفسه وان يعرف العالم ؟! ومن سيأتي اليه في زاوية مامنسية ، يحفظ اشعاره الذاتية الخاصة ويذيعها بين الناس ؟ واين الجاه والمال والنفوذ ؟ فيمدح سيف الدولة ويثير الحساد والمناوئين ، ويشيد بمحاسـن كافور ويطلب ولاية ، ويترفع عن مدح آخرين فتؤلف في مساوئه ومثالبه الحقيقية والمتوهمة ، الشخصية والشعرية ،الكتب والبحوث ، وتصدح المجالس الادبية بأخباره واشعاره ، ويسـهر الخلـق ويختصمون ؟ لم يكن امامه سوى المديح ، وارتضى ذلك ووقع في محنـة اغترابه الجديد : خضوعه للممدوحين واهوائهم ورغباتهم ، وانفصاله عنهم واقعا وشعرا وانسانية . ومهما فخر وتمدح وامتنع عن الانشاد واقفا فانه يبقى عندهم شاعرا مداحا ووسيلة للشهرة والدعاية والخلود ، لقاء مال وثمن وكان يعرف ذلك ويتعبه[١٣] :

شـر البلاد مكـان لاصـديق بـه

وشـر ما يكسـب الانسـان ما يصـم

وشـر ماقنصتـه راحـتي قنصـ

شـهب البـزاة سـواء فيـه والرخم

وحدث الانفصال بينه وبين ممدوحيه ، فعرض بهم واهانهم احيانا ، وفخر بنفسـه ، وبينه وبين واقعه كمداح ، فوضع لنفسـه قيما ، ولم يتفق معه العالم ، وبينه وبين الشعراء الذين خبت جذوتهم بانواره ، وقام الاعداء والمناوئون يغتالون موهبته ويزعجونه فاحس بمرارة ولوعة وغربة انسان لا يستطيع الا ان يكون وحيدا[١٤] :

أهم بشيء والليالي كأنها
تطاردني عن كونه واطارد
وحيد من الخلان في كل بلدة
اذا عظم المطلوب قل المساعد

ان ارتباطه في حياته بشخصين ، هما جدته وممدوحه سيف الدولة ،رغم جفائه وخذلانه ، لايكفي لتكوين علاقات انسانية طبيعية بينه وبين الناس(١٥):

وما أنا منهم بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام

وافقده طموحه وطاقته الهائلة وولعه بالمجد ان يروي اغترابه وانفصاله وانفصامه بود حقيقي يمنحه الاهل او يضفي عليه الوطن ظلا من الطمأنينة والسعادة والقناعة(١٦) :

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني
ان النفيس غريب حيثما كانا

ولم يتعبه شيء كتطلعه الى الكمال ، وعجزه عنه ، وايغال عقدة الالوهية في ذاته(١٧) :

ولم أر في عيوب الناس شيئا
كنقص القادرين على التمام

فهل يمكن ان يزول اغترابه ، لو ادعى الشاعر النبوة حقا، وآمن به كثيرون حتى يؤمن هو بنفسه(١٨) :

ما مقامي بأرض نخلة الا
كمقام المسيح بين اليهود
مفرشي صهوة الحصان ولكن
قميصي مسرودة من حديد

وهل يزول اغترابه ، لو جمع أموال الدنيا ، أو حصل على ولاية واتسعت آماله وامتد نفوذه الى بلاد شاسعة واصبح من أمراء عصره وقواده ، يخوض الحروب والغزوات منتصرا ، فتوجه أكاليل الغار ؟ أم كان هذا وذاك عنصر لتبديد طاقة الاغتراب في نفسه ، والهروب من ذاته ، والبحث عن موازنة بين الواقع والطموح وبين المثال والتحول وبين الحلم والحقيقة ؟!

---

(١) ـ (١) الديوان ، ج١ ، ص٢٢٢ ، ج٢ ، ص٣٧ ، ج٤ ، ص٤٤ ، [illegible]
ص١٨٣ ، ١٩٣ ، ج٤ ، ص١٨٣ ، ١٤٣ ، [illegible]

(١) خزانة الأدب ٢/٢١٣ .

(٢) ـ (١٨) الديوان ، ج١ ، ص٨٠ ، ج٢ ، ص٣١٣ ، [illegible]
٧٠ ، ٢٢٣ ، ١١٨ ، ج١ ، ص٣١٥ .

الفهرس

تصميم الغلاف : بدروس بدروسيان
الخطـــوط : علي حسين

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
(٦٨٤ لسنة ١٩٧٦)

دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م

الجمهورية العراقية
وزارة الاعلام
بغداد

دار الحرية للطباعة
١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م

السعر [illegible] فلس